الأسرة المصرية في عصورها القديمة

د. عبد العزيز صالح

أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
وعميد كلية الآثار الأسبق بجامعة القاهرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

الإخراج الفني

البير جورجي

الغلاف : سها سليمان

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بين الماضى والحاضر

من المسلم به أن حضارة مصر القديمة تعد من أولى الحضارات الكبيرة المستقرة ذات القيم الراسخة ، والتقاليد المتواصلة ، والآثار الكثيرة الباقية ، إن لم تكن هى بالفعل أقدمها عمراً وتأريخاً . وهو تأريخ خُلّد مبكراً بفضل السبق إلى ابتداع الكتابة وتصنيع أوراق البردى وكثرة المنشآت واتساع النقش على الحجر ، وذلك منذ اكتمال الوحدة السياسية والاجتماعية الكبيرة للمجتمع المصرى القديم فى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد ، بعد دهور ما قبل التاريخ التى سبقتها بآماد أخرى طويلة لم تكن لها مصادر مكتوبة .

ورغم غلبة الطابع المحافظ الذى صبغ معظم وجوه الحضارة المصرية القديمة ، لم يتجمد نموها الثقافى القديم فى نمط واحد ، ولم ينقصها التطور الفكرى والروحى والعملى خلال عصورها المزدهرة بخاصة . ثم تداخلت وتفاعلت جزئياً ببعض مقوماتها الأخلاقية الخاصة فيما بعد مع ما لم تتعارض معه من عقائد المسيحية ، ثم من عقائد الإسلام ، منذ بدايات ظهورهما المبكرة .

ومع عمرها بالغ الامتداد ، وقدمها البعيد فى أغوار الزمن ، وتنوع خبراتها الحياتية ومقوماتها الثقافية المتجددة من عصر إلى عصر ، لازالت بعض سمات الروح المصرية القديمة بيّنة إلى الآن وإلى حد ملحوظ فى غير القليل من مقومات الشخصية المصرية المعاصرة ، بملامحها السلالية (أو الجنسية) ، وطابعها النفسى والوجدانى الغالب ، وخصائص سلوكياتها الاجتماعية العامة ــ وذلك من حيث أسسها الرئيسية على أقل تقدير ــ ودون افتراض أو توقع توافر المزايا أو الفضائل فى هذه السمات بمنأى عن النقائص أو العيوب فيها بحال من الأحوال .

ويتضح هذا أكثر ما يتضح فى التكوين الغالب على جمهرة المواطنين المصريين من الأوساط الريفية والشعبية على وجه أخص ، مع شىء من التجاوز عما تلونت به حياتهم العامة مؤخراً من متغيرات العصر الحديث وتطوراته السريعة ، فضلاً على تنوع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى المجتمع المصرى الكبير خلال مختلف عصوره المتلاحقة .

وواكبت البقية المتوارثة من قيم السلوك والعادات فى حياة المجتمع المصرى على امتداد تاريخه الطويل ، استمرارية التسميات المصرية القديمة لعدد لا يستهان به من القرى والمدن حتى الآن ، وذلك فضلاً على بقاء عدد من مصطلحات الحرف اليدوية الشائعة ومنها حرفة الزراعة بشهورها التقليدية . ثم تداخل بعض ألفاظ وتراكيب اللغة المصرية القديمة فى لغة مصر العربية أو الدارجة التى احتفظت بلهجة وجرس ونكهة مستحبة لا تزال تختص بها بين سائر لهجات الوطن العربى على اتساعه .

ولحياة الأسرة المصرية ، الموضوع الرئيسى لهذا البحث ، نصيب وافر من الصلة بماضيها البعيد ، فيما تواضعت عليه من عادات اجتماعية ومأثورات شعبية ، فى الريف والأحياء البلدية بخاصة . وذلك من حيث : إيثار الترابط العائلى . وتكافل الجيرة . وحب الاستقرار فى المعيشة والسكن . وتزكية الزواج المبكر وكثرة الإنجاب . وسريان بعض عادات الوضع والتطهر

والختان ، وبعض مدلولات تسميات المواليد ، والوسائل الشعبية فى علاجهم . ومن حيث التسليم بقوامة الرجل على زوجته وبنيه وبناته وامتداد مسئوليته عنهم حتى ولوبلغوا سن العمل والزواج . مع اعتماد الأبناء أنفسهم على عون أسرهم حتى مرحلة الشباب أحياناً . ومن حيث الوسطية فى السلوكيات وفى روح التدين وأداء العبادات ، والميل إلى التماس كرامات الأولياء . ومن حيث وطيد صلة المرأة بعمل البيت وجهودها المتواصلة فيه . واستعداد نساء الطوائف الفقيرة لمعاونة الزوج فى بعض عمله حين الضرورة . وإيثار الحياء والحشمة للنساء دون التزام مفروض بالحجاب أو النقاب الكامل . والحض على وجوب تأدب الصغار إزاء كبار السن وكبار المقام ، والتعود على مناداتهم فى الريف بخاصة بألفاظ الأب والعم والخال ولو لم تقم أساسا على رابطة الدم الفعلية ، أو لم تقترن بتهذيب فعلى دائماً . وما ينحو مثل هذا المناحى من قيم وعادات وتقاليد ظهر لها بطبيعة الحال ما يوازيها بصور شتى فى بقية الأسر والمجتمعات القديمة والحديثة ، لولا أنها تبدو فى مصر أكثر تلقائية واستمرارا ووضوحاً ، عنها فى كثير مما عداها ، وهو ما سوف تكشف عنه تباعاً الدراسة التالية .

الفصل الأول

حكمة مصر القديمة ومقومات سعادة الأسرة

افترض الحكماء المصريون القدامى من مقومات فلاح الأسـرة : أهلية الزوج ، والزواج المبكر ، وحسن القدوة من رب الأسرة ، ورشاد الزوجة ، والتعاطف والألفة والأخوة الروحية بينهما ، ووفرة النسل ، وأداء الالتزامات .

ولا تزال أغلب هذه المقومات التى وردت فى تعاليم ونصائح من عهود مصرية قديمة متفرقة ، هى المثلى عادة ليكون الزواج سكناً وعصمة ، ومودة وتقاربا روحياً ، وعلاقة مشروعة للتكاثر واستمرار العمران .

وهكذا أوصى الوزير الحكيم بتاح حوتب نجله الأكبر الذى تسمى بمثل اسمه ، وهو يهيؤه لمسئوليات الرجولة والحياة العامة ، فى فترة ما من القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، قائلا له فيما قال :

«إذا أصبحت كفئاً (أو رشيداً) أسس بيتك (أى كون أسرتك) . وأحبب زوجتك فى حدود العرف ، أو عاملها بما تستحق» .

ووعظ الأديب آنى ولده خنسو حوتب على فترة من القرن السادس عشر ق . م . بقـوله : «تخـير لك زوجـة وأنت شاب ، وأرشـدها كيف تكـون

إنسانة» . وهو يعنى بذلك تنويرها وترشيد قدراتها الفطرية لما فيه صالح أسرتها ونفع أطفالها .

ثم قال : « وعساها تلد لك إبناً ، فإنها إذا أنجبته لك وأنت فى طور الشباب استطعت أن تهذبه وتجعله إنساناً . وطوبى للمرء كثير الأهل حين يرتجى من أجل أبنائه » .

وزاد الأديب عنخ شاشنقى من القرن الخامس ق . م . ، قوله لولده فى شئون الزواج : «اتخذ لك زوجة حين تبلغ العشرين ، حتى يتأتى لك الخلف وأنت فى ميعة الشباب» . وقال له : «قد تقترض مالا بفائدة لتتزوج . . . ، ولكن لا تقترض ما لا بفائدة لتتعاظم به» . ووعظه حين اختيار قرينته بمثل قوله : «احذر أن تتخذ فتاة سيئة الطبع زوجة ، حتى لا تورّث أبناءك تربية فاسدة» . وما إلى ذلك من نصائح أخرى سوف نستشهد بها فى مناسبات تالية .

وشأنها شأن غيرها من الأسر ، كان من البدهى أن تتفاوت أنماط الأسر المصرية القديمة وتتنوع مقدراتها من أركان سعادتها أو من أسباب شقائها ، بمدى التباين الاجتماعى والاقتصادى والثقافى فى حياتها الخاصة أو العامة ، ومدى كفايات أزواجها وزوجاتها ، ومدى كثرة نسلها وفلاح أمره أو فشل مسعاه .

بيد أنه مع أمثال هذاالتفاوت التلقائى الذى عايشته معظم الأسر فى كل مجتمع وكل زمان ، ومع احتمال إيثار قلة من المصريين لحياة العزوبة دون زواج ، نتيجة للفقر أو ما عداه ، إلا أنه يبدو أن الحياة الأسرية فى مصر القديمة قد نعمت فى أغلب حالاتها بنصيب من الاستقرار النفسى والحياتى والوجدانى قلما نعمت بمثله الأسر الأخرى فى غالبية المجتمعات القديمة المعاصرة لها أو قريبة العهد منها .

وتنوعت عوامل هذا الاستقرار الأسرى من فئة إلى أخرى بتنوع الظروف الثقافية والاجتماعية التى كانت تعايشها . وكان من أكثرها فعالية فى نطاق

الأوساط العليا والوسطى من المجتمع ــ نوع من التوازن السوى عدلت به القيم المتوارثة بين أوضاع الزوجين فى الأسرة . وهو توازن عبرت عن بعضه جزئياً مسميات الزوج والزوجة والزواج ، وهى مسميات اصطلاحية يمكن أن تفسر الآن بمعانيها أكثر مما يمكن أن يترجم عنها بحرفية ألفاظها .

فقد كان الزوج بالنسبة لحليلته : «هى» أى بعل ، و «نب» أى سيد أو ولى الأمر ، ثم هو فى الوقت ذاته «سن» أى أخ ، وذلك مما قد يعنى أن بعولته وسيادته أو ولايته كانت من قبيل حقوق الأخ الأرشد أساساً .

وكانت الزوجة بالنسبة لبيتها وزوجها : «ست» أى سيدة ، و «حمة» أى حرمة لا تحل لغير قرينها ، وهى بالتالى «ست حمة» . ثم هى «مرة» أى حبيبة . وقد تسمى «حبسة» أو «حبيسة» أى مستورة ، و «حمسة» أى جليسة أو قعيدة كناية عن رفقتها لزوجها وقعودها معززة فى بيتها . ثم هى «نبت بر» أى ربة بيت أو ست الدار كما يقال حتى الآن . كما أنها فى الوقت ذاته «سنة» أى أخت أو فى منزلة الأخت بالنسبة لزوجها .

وشاع من التعبيرات الاصطلاحية للزواج فى مصر القديمة تعبيرات : «جرج بر» أى تأسيس البيت (بمتطلباته) ، أو تكوين الأسرة . و«إرحمة» أى عمل حرمة أو اتخاذ زوجة . و«منى» بمعنى الرسو أو الاقتران . و «خنة» بمعنى النكاح (أو عقدة النكاح) أو المتعة (المشروعة بين الاثنين) . و «حمس إرم» بمعنى المعاشرة والسكن والخلوة ، و «عقربر» أى دخول البيت ، وهلم جرا .

ويتطلب تعريف الزوج بالأخ ، وتعريف الزوجة بالأخت ، فى التعبيرات المصرية القديمة ، تعقيباً موجزاً لتصويب فكرة مغلوطة أشاعت الظن لدى بعض الكتاب القدامى والمحدثين بشيوع زواج الأخ بأخته فى المجتمع المصرى القديم . وذاك أمر مشكوك فى صحته إلى حد بعيد ، على الرغم من أنه لم ينسب إلى قدامى المصريين وحدهم وإنما نسب بعض المؤرخين مثله كذلك إلى عدد من الشعوب الشرقية والغربية القديمة الأخرى ، كأسلاف العبرانيين وأهل نباتا السودانيين ، وبعض الإغريق والمقدونيين ، والرومان ، والأنباط

وعرب الجاهلية ، إلخ ، أو على حد تعبير الباحث فلندرز بترى فيها يمتد من بلاد فارس شرقاً حتى الجزر البريطانية فى الشمال الغربى . وروى هيرودوت أن الملك قمبيز استفتى مستشاريه ذات مرة عن قانونية الزواج بالأخت فأبلغوه أنه ما من قانون ينص على ذلك ولكن الملك يستطيع أن يجيزه لنفسه وأن يفعل ما يشاء . وتكرر نفس التساؤ ل فى قصة مصرية ديموطية متأخرة قد ترجع أصولها إلى عصر الأسرة العشرين ، فاستفسر أب أمير عما إذا كان القانون أو العرف يبيح زواج الأخ بأخته . ولو كان هذا الأمر شائعا ما تساءل عنه .

ويبدو أن تقاليد الزواج المصرية القديمة قد تجنبت من جانبها زواج المحارم بفطرتها أو بتشريعاتها منذ فترات مبكرة من تاريخها البعيد . وكثيراً ما دل ما بقى من أنساب الأزواج والزوجات فى النصوص المصرية القديمة على انتماءاتهم إلى أسر متنوعة أو فروع مختلفة ، على الرغم من الاستمرار على تلقيب الزوج فيها بالأخ ، وتلقيب الزوجة فيها بالأخت .

وفى بحث تقصى نحو **٣٥٠** زيجة مصرية تبين أنه لا يكاد يوجد فيها غير مثل واحد مؤكد لزواج شقيقين من بعضهما ، وكانا من أصل ليبى مهجن فى عصر الأسرة الثانية والعشرين ، وأن ما يعتريه الشك من حالات أخرى معدودة يحتمل أن يكون قد تم فى أسوأ حالاته بين غير الأشقاء . ولو أن هذا كله لا ينفى بالضرورة احتمال وجود حالات أخرى فردية شاذة أباح أصحابها لأنفسهم زواج المحارم ، وهو شذوذ لم تنج من مثله كبرى الحضارات حتى العصر الحاضر ، وإن لم يكن لمجتمعاتها شأن بإباحته .

ومع ذلك فقد أحلت الأسر الملكية المصرية القديمة لنفسها جواز اقتران الأخ من أمرائها العظام بأخته غير الشقيقة فعلاً على سبيل الاستثناء ومن أجل تحقيق بعض أهدافها العليا للحفاظ على استقرار الملكية ووحدتها . وفى مقدمة هذه الأهداف رغبة التقريب بين أبناء الضرائر الكبار من ورثة العرش إذا كان أكبرهم من غير الملكة الرئيسية ذات الدم الملكى الخالص . وتجنب انفراد الابنة الكبرى من هذه الزوجة الرئيسية بالحكم إذا انحصرت وراثته الشرعية فيها (وذلك فيما خلا حالات نادرة) ــ وتفادى خصومتها لأكبر إخوتها الذكور

من أمهات أخريات . وفى أمثال هذه الظروف كان لها أو لأبيها ، السماح بأن تتزوج بهذا الأخ غير الشقيق ليعتليا العرش معاً بعد أبيهما ويكون لها بالتالى أن تحظى بقدر مناسب من السلطة العليا إلى جانبه دون أن تنفرد بها تماماً أو تحرم منها تماما .

وذكر سفر التكوين من التوراة (فى الإصحاحين ١٣ ، ٢٠) أن ابراهيم عليه السلام وفد هو وزوجته سارة على مصر ليمتار منها بعد أن نزل القحط بأرضه ، وأنه تعمد أن يقول بأنها أخته ، وقالت هى الأخرى إنه أخوها ، أمام ملك مصر ورجاله . وتكرر الأمر نفسه منهما أمام ملك جرار فى فلسطين . ولما عرفت حقيقة زواجه بها فسر هذا بأنها أخته من أبيه وليست من أمه . وربما وافق فى الأولى عادة المصريين فى نعت الزوجة بالأخت ، كما وافق فى الثانية رخصة الملوك فى تزاوج الإخوة غير الأشقاء ، إلى جانب ما قد يكون له من غرض خاص اختلف المفسرون فى كنهه .

ولعل الأسر الملكية المصرية القديمة قد بررت لنفسها هذه الرخصة عملاً بما تواتر فى الأساطير المصرية القديمة عن سابق اقتران المعبودين الأخوين أوزير وإيسة (أو أوزيريس وإيزيس فى النطق الإغريقى) ببعضهما باعتبارهما أقدم جيل جمع بين صفات الربوبية والصفات البشرية على وجه الأرض . وربما تكرر الأمر ذاته بالنسبة لأخويهما (سوتخ ونبت حت) (أوست ونفتيس) . وكان هذا القران أشبه بزواج الضرورة ، ويتماثل إلى حد ما مع ما رواه مفسرو الديانات السماوية عن زواج ولدى آدم عليه السلام بأختيهما الشقيقتين حيث لم يكن فى الدنيا حينذاك غيرهم مع أبويهم . ومهما يكن من أمر فقد أباح قدماء العبرانيين (أو بعضهم على سبيل التحوط) الزواج بالأخت من الأب ، والجمع بين الأختين ، والتزوج ببنت الأخ وبنت الأخت ، إلى أن استنكرت الشريعة الموسوية أغلب هذه التجاوزات .

وليس من المستبعد أن يكون أغلب ما رواه المؤرخون عن إباحة زواج الأخ بأخته فى مصر القديمة متأثراً إلى حد كبير بما ترتب علي التسيب الحضارى واللا أخلاقى الذى لحق بأواخر المجتمع البطلمى أو الهيلينستى الخليط فى

مصر ــ بحيث قيل إنه أتى وقت على مدينة أرسينوى كان ثلثا أهلها ممن أباحوا هذا الزواج ، وبحيث قال أحد الرومان فى شىء من التهكم إن المرء فى أثينا يستطيع أن يتزوج من أخته لأمه أو لأبيه ، ولكنه فى الاسكندرية يستطيع أن يتزوج من شقيقته (ويقصد بذلك نزلاءها الأخلاط) .

أما فى بقية طوائف المجتمع المصرى الخالص ، وفى عصوره الزاهرة بوجه أخص ، فقد جرى تبادل لفظ الأخوة بين الزوجين على أساس معنوى من مودة التراحم وروح التعاطف . وهى عادة حميدة لازال لها ما يماثلها إلى حد ما بين الفئات الشعبية والوسطى من المجتمع المصرى المعاصر ، حين يقال ، عرضاً أو قصداً ، على سبيل المثال ، تعالى يا أختى ، وخد يا خويا ، أو خذ يا أخى ، وما أشبه ذلك من تعبيرات المجاملة دون ارتباط لازم بأخوة دم فعلية .

* * *

أبانت أقوال حكماء مصر القديمة عن بعض الأوضاع المستحبة للزوجين فى الأسرة . فاعترفت بقوامة الرجل على أسرته بناء على ما التزم به إزاءها وأنفقه عليها ، وبما اكتسبه دونها من خبرات الحياة . وأكدت من التزاماته تجاه قرينته أن يتكفل بضرورياتها وكمالياتها ، وأن يستغنى بفضائلها عن نقائصها ، وأن يطريها ويلاينها . وإن أباحت له فى مقابل ذلك أن يوجهها ويهذبها ، أو يؤدبها حين الضرورة ، ولا يستكين لها فيما يمس كرامته ، أو يتنافى مع ما يعتقده من رأى سليم .

وصورت بالتالى وضع الزوجة الرشيدة فى أسرتها ، سيدة لبيتها ، وفية لزوجها ، أثيرة لديه ، فاضلة ما لم يثبت العكس عليها ، يغرها الثناء ويرضيها ، ويسوؤها أن تنافسها إمرأة أخرى مكانتها فى دارها .

وإن قدرت لها فيما سلف عنها أنها بحاجة إلى توجيه زوجها ، وإلى إدراك حقيقة رسالتها فى بيتها وإزاء أبنائها .

وهكذا أورد بتاح حوتب حكيم الدولة القديمة ، عن التزامات الزوج تجاه

قرينته ، فى مقابل حقوقه عليها ، بعد أن نصحه أن «أحبب زوجتك فى حدود العرف ، أو عاملها بما تستحق . . . .» قوله :

«أشبع جوفها واستر ظهرها ، وعطر بشرتها بالدهان ، فترياق بدنها هو الدهان (وقام الدهان العطر حينذاك مقام مساحيق التجميل فى العصر الحاضر) .

«وأسعد فؤادها طيلة حياتك ، فهى (أى المرأة) حقل نافع لولى أمرها . (وهو ما قد يشبه قول الذكر الحكيم : (نساؤكم حرث لكم) .

«ولا تتهمها عن سوء ظن ، وامتدحها تخبت شرتها . فإن نفرت راقبها .
«واستمل قلبها بعطاياك تستقر فى دارك .
«ولسوف يكيدها أن تعاشرها ضرة فى دارها . . . .» .

وكان أكثر تسامحاً حين قال : «إذا رُزئت بزوجة رعناء ومسيئة لمواطنيها . . . . ترفق بها أمداً ، ولا تعجل بتسريحها ، ودعها تطعم خبزك (ربما بمعنى وكلها عيشك أو غذّها بطبعك) . .» .

وأضاف الأديب آنى حكيم الدولة الحديثة عن الموضوع ذاته ، قائلاً لفتاه :
«لا تعنف زوجتك فى دارها إن أدركت صلاحها .
«ولا تسلها عن شىء قائلا أين موضعه هلم احضريه إلينا إذا وضعته فى وضعه الملائم» .
«افتح عينك وأنت صامت وتحقق من مزاياها .
«وإن شئت أن تسعد فاجعل يدك معها وعاونها .
«وإنما يجهل كثير من الناس كيف يمنع الإنسان أسباب الشقاق فى داره .
«وقد لا يجد أحدهم مبررا للخصام فيختلقه .
«وبوسع كل امرىء أن يكفل الاستقرار فى الدار إذا تحكم لتوه فى (أهواء) نفسه .

«ومع ذلك فاحذر أن تسير فى ركاب أنثى ، أو تتركها تسيطر على فكرك» .

(وفى قراءة محتملة أخرى للعبارتين الأخيرتين : فمن استقربه الدار وجب أن يستقر معه تقلب الفؤاد . وليس لك أن تلاحق امرأة أو تدعها تسلبك الرشاد) .

وامتدح الحكيم عنخ شاشنقى الزوجة الفاضلة بقوله : «نعمة المقتنيات زوجة رشيدة» .

(ويلاحظ بقاء فكرة اقتناء الرجل لزوجته فى مثل التعبير الشعبى عن الزوج : « اللى قانيها » حتى الآن) .

وقال عن الزوجة التى يعز التفريط فيها حتى ولو حرمت من الإنجاب : « لا تهجر امرأة فى دارك لأنها عقيم » . وقال : « إذا تراضت المرأة مع زوجها فذاك فضل من الرب » . كما قال « وحبذا لو تخلص قلب المرأة وقلب زوجها من البغض » .

واعتبر عنخ شاشنقى الزوجة انعكاساً حيا لشخصية زوجها ، فى أمور صلاحها وأمور طلاحها ، وقال فيها قال : «المرأة (أشبه بـ) جسم من حجر لين يتأثر (تشكيله) بأول من يتعامل معه» . « وإن عشقت المرأة تمساحاً سايرته (فى طبعه) » . «وإن أخلصت لزوجها فلن يعاودهما سوء» . ولكن «ضياع المرأة (فى) عدم معرفتها» . و «إنما تفسد المرأة برضا زوجها» ، و «زوجة الأحمق يمكن أن تضرب أحمقها» .

* * *

الفصل الثاني

الزيجات فى التراجم والقصص وواقع الحياة

اعتادت أغلب التراجم القديمة على إظهار فضائل أصحابها دون عيوبهم ، إيثاراً منها للذكر الحسن . وهو واقع ينبغى أن يدرج فى الحسبان كلما جرى الاستشهاد بميزات الحياة الأسرية فى مصر القديمة دون استبعاد بطبيعة الحال لوجود عدد ما من النقائص فيها ، وهى نقائص قد يتيسر تحليل بعضها ويصعب تعليل بعضها الآخر إلا فى ضوء تقاليد عصورها القديمة وعقائدها الدينية .

وكشفت عن مدى حرص رب الأسرة المصرى على استقرار وترابط أسرته قرائن عدة . ومنها مخطوط قديم لتفسير الأحلام يرجع تأليفه إلى بداية الألف الثانى قبل الميلاد . وقد ورد فيه ما يعتبر طلاق الزوجة وتعدد الزوجات من الشرور المستطيرة ، حيث يقول : «إذا رأى الرجل فى رؤ ياه لهبا يحرق فراشه ، فذاك شر وتأويله طلاق زوجته» . و «إذا رأى وجهه فى مرآة فذاك شر أيضاً وتأويله زواجه بأخرى» . و «إذا رأى أنه ينزع مقعداً من قاربه ، فهو شر كذلك وتأويله انفصاله عن حليلته» .

وعلى الضد من ذلك «إذا رأى الرجل نفسه فى رؤ ياه يقرأ مخطوطاً أو يبنى بيته بالحجر ، فذاك خير ويعنى استقرار داره» (أى استقراره مع أهل بيته) .

وكان خير ما وُعد به ملامح مصرى تائه أن قال له منقذه «ولسوف تملأ حضنك بأولادك وتقبل زوجتك وترى بيتك (ثانية) . وأفضل من أى شىء (آخر) أن تصل إلى وطنك الذى كنت فيه بين إخوتك وأخواتك» .

وسجلت بعض الوثائق الشخصية القديمة خلالا حميدة لأزواج مثاليين ، عاتب أحدهم روح زوجته المتوفاة حين خيل إليه أنها كانت سببا فيما ألم به من مرض عضال عقب وفاتها ، فكتب لها رسالة خاصة باسمها وأودعها فى قبرها أملاً فى أن تطلع عليها روحها . وناشدها فيها أن تكف عنه غضبها ، وذكّرها بما أسلف لها من تكريم وحب ووفاء ، حيث قال لها ما معناه :

«اتخذتك زوجة حين الشباب ، واستقررت عندك ،
وتقلبت فى شتى المناصب وبقيت معك ،
وما تخليت عنك أو ألحقت هما بقلبك ، . . .
وما وافانى إنسان بأمر يخصك وتقبلت وشاية منه ضدك ، . . .
وجعلت حرسى يحيونك كلما شاهدوا طلعتك ويتحفونك بالهدايا . . . .
« وما أخفيت سراً عنك طيلة حياتك ، . . .
وما أسأت إليك قط أو عاملتك معاملة السيد .
وما هجرتك . . . ، أو دخلت بيتاً غير بيتك .
ولم أدع أحداً ينتقد مسلكى تجاهك .
وعندما مرضت دعوت خير الأطباء لعلاجك ،
ولما وافاك الأجل جئت فى عطلتى وبكيت كثيراً على مثواك .
وها أنا قد عمرت (بعدك) ثلاثة أعوام وحيداً ، ولم أدخل داراً غير دارك ، حتى من بيوت أخواتى . . . » .

ومع تملق هذا الزوج لروح زوجته لم يفته أن يتحوط لعنادها فهددها من طرف خفى بمثل قوله «سأرفع أمرى معك وأقاضيك شفاهة بنفسى فى حضرة

أرباب الغرب التسعة ، وسيفصلون بينى وبينك وفقاً لهذا البيان» ، وبمثل قوله «فإن لم تميزى بين الطيب والخبيث ، فسوف يقوم الفصل الحق بينى وبينك» .

وأشادت بعض النصوص الدينية بدورها بصلاح أزواج مثاليين أخر لم يكونوا يرتضون بديلاً عن زوجاتهم حتى فى عالم الآخرة ، ولو تعددت جواريهم . وسجلت من دعواتهم ما يرجو فيه رب الأسرة ألا يعترضه معترض أو عائق يحول دون أن يلتئم شمله بزوجته وبنيه ، فضلاً عن أمه وأبيه ، أينما استقر معهم على الأرض أو فى السماء ، أو طوّف بهم على صفحة الماء ، على حد قول نص مصرى قديم .

وترتب على شيوع رغبة الاستقرار بين أخيار المصريين القدامى إلى تقليل أخذهم بتعدد الزوجات ، على الرغم من أن هذا التعدد كان مشروعاً لديهم ، وأن بعض الملوك والأثرياء وأواسط الناس وطغامهم أيضاً قد أخذوا به فعلاً ، وأن القصور الكبيرة لم تخل من الجوارى والسرايا وملك اليمين لاسيما فى عهود الرخاء والترف وسبايا الحروب . وكان لثقل التزامات الطلاق أثر كذلك فى شيوع الاكتفاء بزوجة واحدة ، وقلة احتمالات الانفصال بين الأزواج .

وتوخى بعض خيار الأزواج إظهار العدل بين نسائهم فى نقوش مقابرهم ومناظرها تدليلاً على ما كانوا يعدلون به بينهن فى حياتهم الفعلية . . وهكذا قد يصور أحدهم زوجتيه من حوله يجالسانه معا فوق مقعد واحد ربما بما يعنى معيشتهما معه فى بيت واحد . أويصور كل زوجة فى جانب من مقبرته بما يوحى بمعيشتها فى مسكن خاص فى ظله . وقد يسجل آخر اسم وألقاب من يتوفى له من زوجاته فى شىء من التكريم كما يحفظ لأبنائه منها أو منهن حقهم فى ميراثه ، جنباً إلى جنب مع حقوق زوجته الجديدة وأولاده منها مما يرد تفصيله فى صفحات تالية .

ولم يقتصر الفضل على خيار الرجال وحدهم ، وإنما امتد كذلك إلى فضليات الزوجات . وفى حدود ما سجلته غالبية النصوص والمناظر القديمة عن أهلها ، يبدو أن معظم الزوجات كن يقابلن وفاء أزواجهن بالحب

والطاعة . ولم تأب زوجة أن تعلن تعلقها بزوجها باللفظ والصورة ؛ كأن يصورها فنان وهى تعطر صدر هذا الزوج بالطيب ، أو تتخير له أطايب الزهور ، أو وهى تجالسه وهو يلعب بالنرد ، أو تقف خلفه بالشراب وهو يبارى فيه قريباً عزيزاً . ولم تأب أن يمثلها مثال وهى تحتضن خصر بعلها بساعدها وتلمسه بالساعد الآخر ، كناية عن تعلقها به واعتمادها عليه ، أو وهى تجثو لدى ساقيه فى إعزاز وإكبار ومحبة ، على الأقل فى أوقات الوفاق والوداد بينهما .

ومع صعوبة تحقيق السكينة فى بيت يجمع بين زوجتين أو أكثر من زوجتين لرجل واحد ، بل وتعهد الرجل فى عقد الزواج أحياناً بعدم زواجه بأخرى بناء على إصرار عروسه وإلا تعرض للانفصال والتزم بتعويض مناسب ، روت بعض المصادر المصرية القديمة أنباء طريفة عن ضرائر قانعات متسامحات فصورت إحداهن على سبيل المثال ولم تكن منجبة ، مع ضرائرها الخمس الأحياء منهن والموتى يصحبهن أبناؤ هن ، ليشاركوها متع الحياة فى مناظر مقبرة زوجها أو مقبرة الأسرة ، ويقدمون لها الهدايا والقرابين وهى على أعتاب الآخرة ، كما لو كانوا من أبنائها .

وروى نص قديم أن سيدة يئست من إمكان الإنجاب فأوحت إلى زوجها أن يبنى بأخرى ابتغاء الخلف ، ففعل ، وكانت أشبه بتابعة أو جارية لها . ولما أنجبت له هذه الأخيرة بنين وبنات وقرت عينه بهم ، رضيت السيدة بالأمر الواقع وتبنت أطفال تابعتها التى أصبحت ضرتها ، وخصصت لهم نصيباً من ثروتها المتواضعة ، ولما شبوا عن الطوق زوجت أخاها بنتاً منهم (ويبدو أن التبنى من جهة الأخت لم يكن كافياً ليجعل المتبناة من المحارم بالنسبة إليه) . وسجل مصدر آخر تسامحاً فريداً بين ضرتين أخريين أطلقت إحداهما اسم ضرتها على ابنتها ، وأطلقت الثانية اسم ضرتها بالتالى على بناتها الثلاث كاسم ثان أو اسم تدليل ، اعترافاً منها بتبادل المودة بينهما . وتلك كلها استثناءات معدودات بطبيعة الحال .

وجسـدت الأساطـير الدينيـة مثاليـة الـزوجـة الأم فى شخـوص عـدة معبودات ، أشهرهن هى الربة إيسة (أو إيزيس) التي صورتها القصص بمشاعر بشرية خالصة ، يتعاقب فيها الوفاء والصلابة ، والسماحة والعنف ، والرحمة والنقمة ، وفق مقتضيات الأحوال .

وكانت إيسة ، فيما اشتهر عنها ، أختا وزوجة للمعبود المصرى القديم أوزير (أو أوزيريس) ، فعاشت معه كما روت الأساطير على أسعد ما يعيش به الأزواج ، وشاركته هداية الناس إلى ما ينفعهم ، حينما تولى حكمهم فى بداية عمران البلاد . ولكن الحسد والحقد استعرا ضده فى نفس أخيهما ست (أو سوتخ) الذى كاد له وفتك به واغتصب عرشه .

ولم تخضع إيسة للغاصب القاتل ، مع أخوته لها . وظلت وفية لزوجها الشهيد ، وابتغت أن تجعل له خليفة منها يسير على نهجه . فاستعانت بالدين والسحر حتى ردت عليه روحه وحملت منه حملاً ربانياً ، وأنجبت منه ولدهما حور (أو حورس) كما روت الأساطير . وعملت على أن تنشىء هـذا الابن النشأة القوية الصالحة على خفية من أعدائه . ثم عاونته بعد أن بلغ مرحلة الفتوة على أن يسترجع عرش أبيه وينتقم من قاتله وهو عمه ست (أو سوتخ) .

وجاهدت إيسة مع ولدها ، وشهّرت بأخيها وخصمها ست لدى الأرباب والناس ، وكادت له عدة مرات . ودفعت ولدها إلى قتاله جهرة ، وشاركته فى مقاومته ، وأمكنته منه . ولكن ما أن أوشك ست على الهلاك واستنجد بها حتى رق قلبها لحاله ، واستجابت لنداء الأخوة والدم على الـرغم من خصومتـه لزوجها وولدها ، فأنقذته من القتل ، واكتفت منه بأن أقر لولـدها بعـرشه المسلوب وارتضى الولاء له .

* * *

استحبت قيم المجتمع المصرى القديم الزوج الجاد الوقور الغيور ، وأبت الخلاعة من الأنثى . واستنكرت دخول شخص غريب على ربة الدار فى غيبة زوجها . وقضت بالقتل حرقاً أو غرقاً أو ذبحاً عقاباً للزانية ذات البعل ومن زنى بها .

وجنباً إلى جنب مع روح التحفظ والمحافظة التى غلبت على الفكر المصرى فى معظم عصوره ، بقيت ثقة الرجل السوى بزوجته غالبة على ما عداها . ولم يؤد حرصه على حشمتها إلى الزامها النقاب أو إبقائها حبيسة دارها بالضرورة . وقد صورت الإناث المصريات سافرات دائماً . وكثيراً ما صور الرجال يصطحبون زوجاتهم وبناتهم وبنيهم خلال رحلات الصيد والنزهة فى الحدائق والغدران . ولم يمانع المصرى فى خروج زوجته مصطحبة أطفالها لزيارة الأقارب ، محمولة فى محفتها أو متبوعة بخدمها . وإذا مرضت لم يكن يأبى أن يعودها الطبيب فى دارها . وكان من فخر الملك رمسيس الثالث بما وفره لبلده من أمن وسلام أن قال إن المرأة فى مصر استطاعت فى عهده أن تبلغ أى مكان تقصده دون أن يعترض طريقها من تخشاه (وكانت هجرات أجنبية كثيرة قد توافدت على الحدود المصرية قبل أيامه وعمل على إيقاع الهزائم بها وكفل أمن البلاد وأهلها) .

ولم يؤد تحفظ الأسر المصرية القديمة إزاء الأغراب إلى أن توصد أبوابها فى وجود الزوج ، دون الأقارب والأصدقاء . ولم تخل أمسيات الأسر الثرية من دعوات للرجال والنساء صورتها مناظر المقابر ، وفيها يجالس كل زوج زوجته على أريكة عريضة . أو يتخذ الرجال مجلساً يجمعهم ، وتجتمع النسوة فى مجلس آخر يجاورهم . ولم تخل محافلها تلك من رقص الجوارى وشدو الأغانى ، وعزف الأوتار الذى غالباً ما كان يقوم به عازف أو مطرب محترف مكفوف البصر حتى لا يحرج المدعوات بنظراته (وهو تقليد بقى متبعاً فى المجتمع المصرى إلى ما قبل عشرات قليلة من الأعوام) .

ولم تأب قيم المجتمع أن يذكر الزوج زوجته فى نصوصه على أنها محبوبته وأنها مستقرة فى فؤاده (معششة فى قلبه) وجليسته التى يجب أن تؤاكله عن قرب

ويهوى أن يحادثها . كما لم تأب أن تصور الزوجة أو تمثل فى مقبرتها ومقبرته وهى فى أبهى زينتها وأرق ثيابها .

ولم تتحرج النصوص الملكية ذاتها من وصف الملكات بآيات الأنوثة الرقيقة المستحبة ، على رؤ وس الأشهاد ، كأوصاف : ذات الجاذبية ، بهية الطلعة ، حلوة المحبة ، ذات المسرة ، سميرة الملك ورفيقته ، المستقرة فى فؤ اده . وذلك إلى جانب الإشادة بشخوصهن بما أضفته عليهن من ألقاب السيادة والفضل والحصافة . ولم تجد بعض هذه المصادر غضاضة فى أن تصور الملكة أحياناً وهى تلاعب زوجها الملك الدامة ، أو تصحبه فى عربته ، أو تعطر صدره بالطيب ، وتتخير له أجمل الزهور .

ومع أهمية ما تقدم الاستشهاد به من مجاملة المرأة فى تعاليم الآباء والحكماء ، إلا أنه لم يكن من المنتظر توقع الحسنى منهن دائماً على سواء . وقد وجدت اتجاهات أخر فى المجتمع أساءت الظن بمن لا يستقيم أمرهن من الإناث . وهكذا أضاف الحكيم بتاح حوتب قوله فى شىء من المبالغة وهو يحذر ولده من مغبة الاختلاط المشبوه : «تجنب مخالطة (مجالس) النساء ، فما طاب مكان حللن فيه ، ومن سوء الرأى أن يتلصص عليهن إنسان . وكم من امرىء ضل عن رشاده حين استهواه جسد وهاج ثم لبث حتى تحول عنه إلى هباء ، وغدت لحظات متعته القصار أضغاث أحلام ، وربما أودت به إلى الهلاك» .

وعقب بتاح حوتب على تحذيراته هذه بعبارات تشبه الأمثال السائرة ، قال فيها «ينساق الفتى إلى الإثم والنُهى ينهاه ، ألا تفعل الإثم فالإثم عار ، وانقذ نفسك من تأنيب الضمير كل نهار» .

واعتبر الزنا من كبائر الفواحش التى حرص المصرى على أن يعلن براءته منها أمام أرباب الحساب فى الآخرة . فيقول فى دفاعه الإنكارى عن نفسه «إنى لم أرتكب الفاحشة مع إمرأة» ، «ولم أقترف ما يدنس عرضى» ، ولم أرتكب خطيئة تدنس نفسى داخل معبد إله المدينة الطاهر» .

وكثيراً ما وصفت المرأة اللعوب أو بائعة الهوى بأنها غريبة أو أجنبية ، ربما لواقع حالها وتشردها فى البلاد ، أو استنكافاً من نسبتها إلى المجتمع الفاضل . وقال الحكيم آنى عن مثلها : «كن على حذر من المرأة الغريبة التى تتسلل خفية خارج بلدها . لا تتبع خطاها ولا تتعرف عليها اشتهاء . . . إن المرأة البعيدة عن زوجها لجة عميقة لا تدرك غوائلها حين تلح عليك لمحادثتها فى نعومة ولين . وهى تترقبك حينما لا يكون هناك شهود وتلفك بحبائلها ، وتلك خطيئة كبرى تستوجب القتل حين يصغى إليها» .

وتعاقبت على الأسر المصرية الثرية عهود مترفة لم تتردد بعض نسائها فى أن يعقدن مجالس الشراب ببيوتهن ، ويسرفن فيه . ولو أن شرابهن لم يكن مسكراً عنيفاً دائماً ، وإنما كان منه إلى جانب الخمر المعتقة ، مشروبات تشبه البيرة الطازجة وسوبيا الشعير .

ومضت القرون وتزايدت العناصر والعادات الدخيلة فى تكوين المجتمع المصرى القديم خلال عصوره المتأخرة ، ووجد الحكيم عنخ شا شنقى من ظروف عصره ما جعله يحذر ولده من الزوجة الجميلة (أو مفرطة الجمال) ، والزوجة الذليلة ، والزوجة المتغطرسة ، فضلاً عن الزوجة الخليعة . وسمح له بتأديبها وضربها ، على شريطة ألا يشوهها .

ولأمر ما تشدد الحكيم نفسه فى شأن هذه النوعية من النساء ، قائلاً فى عبارات متفرقة غلب عليها الأسلوب الدارج والنقد الصريح : «لا تأخذ كلام المرأة فى بالك» ــ «ولا تفتح قلبك لزوجتك وإلا ذاع سرك» ــ «وإذا تهامست المرأة عن زوجها فلن يعاودهما خير» ــ «وإذا استنشق الرجل عبير المر (والعافية) كانت امرأته قطة فى حضرته» ــ «ولكنه إذا مرض انقلبت امرأته لبؤة فى حضرته» ــ « وإذا جعلت امرأتك حارسة على مالك تطلع إليه (دوماً) ولا تثق بها (كل الثقة) » ــ (ربما بما يشبه المثل الدارج الحالى : حرّص من صاحبك ولا تخونه) ــ «وإن لم تعتن المرأة بمقتنيات زوجها كان هناك رجل آخر يشغل بالها» .

وليس من المستبعد أن سوء الظن بالإناث هنا كان معبراً عن الجانب السيىء فى مجتمع العصور المتأخرة من تاريخ مصر القديم كما ذكرنا ، إن لم يكن انعكاسا لصدى تجربة زوجية فاشلة عاشها الحكيم نفسه .

واستمراراً مع نظرته التشاؤمية هذه حذر عنخ شا شنقى الآثمين من وقوع القصاص العادل بهم ، قائلاً فى تعبيرات عامية مكشوفة : «من زنا بامرأة من الطريق كان كمن نقب كيسه وحمله معه» ـ «ومن نكح امرأة جاره نكحت زوجته على عتبة داره» ـ «ومن نكح زوجة غيره على سرير نكحت زوجته على الطين» ـ إلى جانب قوله فيها استشهدنا به من قبل «إنما تفجر المرأة برضا زوجها» . ولو أن هذا كله لا يقلل من قيمة ما سبق الاستشهاد به أيضا من آرائه فى تكريم الزوجة الصالحة ومسئولية الزوج عن صلاح أمرها .

واعترفت الآداب المصرية القديمة من جانبها ببدوات بعض إناث القصص والأساطير وبالغت فيها . فصورت قصة من الدولة القديمة خيانة زوجة كاهن كبير من القرن السابع والعشرين ق . م . (يدعى وبا أونر) هامت بحب فتى من مدينة منف . واعتاد الفتى أن يختلى بها خلسة فى جانب من حديقة قصرها ، وإذا قام عنها اغتسل فى بحيرة صغيرة بالحديقة نفسها (وهو ما يدل على قدم مبدء التطهر من الجنابة فى مصر القديمة) . وعلم الزوج الكاهن بجريمة العاشقين ، فاستخدم السحر فى تشكيل هيئة تمساح صغير من الشمع ، وتلا عليه أورادا خفية بعثت فيه الحياة ، وهيأه لكى يتلقى عنه أوامره ، ثم أوحى إليه أن يلقف عشيق زوجته إذا ما نزل البحيرة ليغتسل . وعهد الكاهن بتمساحه المسحور إلى أحد أتباعه ، وأوصاه بأن يلقى به فى الماء حين ينزله الفتى . وتم ما أراده الكاهن ، فتلقف التمساح غريمه ومكث به تحت الماء سبعة أيام كاملة . ثم دعا الكاهن الملك نبكا فرعون زمانه إلى داره ، واستدعى أمامه التمساح المسحور ، فخرج من الماء يجر فريسته بفمه (كما روت القصة) . وارتاع الفرعون من هول ما رأى ، ولما أفرخ روعه وعلم بالقصة ، أمر التمساح أن يفتك بالزانى جزاء جرمه ، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق وذر رمادها فى النهر .

وصورت قصة أخرى من القرن الثانى عشر ق . م . ، عرفت باسم قصة الأخوين ، ما يمكن أن تأتيه الأنثى اللعوب فى بيت ريفى صغير . وأسهبت فى وصف الحياة الريفية لأبطالها الرئيسيين وجعلتهم ثلاثة ، أنبو وهو صاحب دار ومزرعة ، وزوجته الفاتنة اللعوب ، وباتا شقيقه الصغير . وخصت القصة باتا هذا بآيات القوة والوفاء والإخلاص ، وصورته مؤيداً بهبة ربانية ، وزعمت أنه عرف منطق الحيوان ، كما نسبت إليه المهارة المطلقة فى شئون الزراعة والرعى .

واعتاد باتا أن يخرج بماشية أخيه مع الفجر إلى الحقل ليحرثه أو يرويه ، ويرعى قطيعه ، ثم يعود فى المساء محملاً بخيرات الزراعة وألبان البقر ويقدمها راضياً بين يدى أخيه وزوجته . وبعد أن يتناول عشاءه ينطلق إلى حظيرة الماشية فينام فيها وحيداً قانعاً . فإذا اقترب الفجر أعد إفطار أخيه وقدمه إليه ، ثم أخذ إفطاره معه وساق ماشيته إلى الحقل والمرعى . وكان يحدث أحياناً ، أن تتسار الماشية فيما بينها بأن الكلأ فى مكان بعينه وفير نضير ، فيفهم باتا قولها ويحقق لها رغبتها ، وينتجع بها ما توده من العشب والمرعى .

ولما حل موسم الزراعة ذات عام قال له أخوه ، هلم أعد الثيران للحرث ، وها هى الأرض قد انحسر ماؤها وتهيأت للبذر . وآتنا ببذور نغرسها مبكرين . فأطاع باتا وصحب أخاه إلى الحقل ، وانشغلا فى الحرث والبذر ، وفاضت نفساهما بالأمل لقيامهما بالعمل مبكرين فى بداية الموسم . ولكن حدث بعد فترة أن اضطرا إلى التوقف عن العمل لنفاذ البذور . فبعث أبنو أخاه الأصغر إلى بيته فى القرية وأوصاه بأن يسرع فى إحضار المزيد من الحبوب .

ولما بلغ باتا الدار ألفى زوجة أخيه تضفر شعرها ، فناداها فى مرح وبساطة قائلاً : «انهضى وناولينى كمية من الحبوب حتى أعجل بها إلى الحقل ، فأخى ينتظرنى ، ولا تعوقينى» . ولكن الأنثى تثاقلت ، وقالت له «اذهب أنت إلى مخزن الغلال واحمل منه ما تشاء ، ولا تضطرنى إلى ترك ضفائرى» .

ودخل باتا المخزن ، وأعد غرارة كبيرة ، واكتال شعيراً وحنطة ، ولما خرج بها سألته : كم احتملت على كتفك ؟ فأجاب «ثلاثة مكاييل من الحنطة واثنين من الشعير» . فحاورته قائلة : «فيك بأس شديد ، وأشهد أنك تزداد قوة وجسارة على مر الأيام» . ودبرت الأنثى أمراً فى نفسها ، ثم هبت واقفة وتعلقت به ، وقالت «هيت لك ، ودعنا نمرح ساعة ونضجع ، فذلك خير لك ، ولسوف أخيط لك ثياباً حساناً» . لكن الفتى فوجىء وأجفل ، وبدا فى هيئة فهد الصعيد الغضوب كما حكت القصة ، واربد وجهه من سوء ما دعته إليه ، فأجفلت المرأة بدورها وخشيته خشية شديدة .

وقال لها الفتى «أنصتى ، أنت بالنسبة لى فى منزلة الأم ، وزوجك فى مكانة الأب ، فهو أكبر منى ، وقد كفلنى وربانى . فلم هذا العار الذى تدعيننى إليه ؟ إياك أن تفاتحيننى فيه مرة أخرى ، ولك من ناحيتى ألا أخبر أحداً به أو أدعه يخرج من فمى إلى أى إنسان» . (وهكذا أوشكت القصة أن تكون مثيلة لقصة يوسف وزوجة العزيز رغم اختلاف الشخصيات) .

واحتمل باتا حمولته ، وانصرف إلى المزرعة ، فلما بلغ موضع أخيه استأنف العمل معه كدأبه دون أن ينبس أمامه ببنت شفة .

ولما حان المساء انفصل الأخ الأكبر وقصد داره ، وبقى الأصغر مع الماشية حتى أكمل حمولته من خيرات الزراعة ، ثم ساق ماشيته أمامه ليبيت بها فى حظيرتها .

وخشيت زوجة أنبو عاقبة زلتها ، فاستعانت بعقار جعلها كالمريضة أو كالمضروبة . فلما بلغ بعلها داره وجدها ممددة متهالكة ، فلم تصب الماء على يديه كعادتها ، ولم توقد المصباح قبل مجيئه ، ووجد الدار فى ظلام دامس فاقترب منها وسألها عمن أساء إليها . قالت : «لم يحادثنى غير أخيك ، أتى يأخذ البذور والفانى وحيدة ، فراودنى عن نفسى وأمسك شعرى ، فأبيت أن أطيعه ، وقلت له ، ألست فى منزلة أمك ؟ وأليس أخوك فى مكانة أبيك ؟

فغضب وآذانى حتى لا أبوح لك بأمره . فإذا تركته أنت يعيش مت أنا ، وأخشى إذا رجع فى المساء وفاتحته فى عاره أن ينسب إلىّ السوء» .

واربد وجه الزوج ، وشحذ خنجره ، واختبأ خلف باب الحظيرة ، ونوى أن يقتل أخاه حين رجوعه . وعاد باتا بعد الغروب ، محملاً بخيرات الأرض كعادته ، فلما دخلت أولى بقراته الحظيرة همست له : «أخوك يقف أمامك بخنجره ليقتلك فاهرب من وجهه» . وفهم باتا قولها ، ثم سمع مثله من البقرة التى تلتها (كما ادعت القصة) وتطلع أسفل الباب فرأى قدمى أخيه وهو مختبىء ، فألقى حمولته على الأرض وأطلق العنان لساقيه ، وتبعه أخوه .

وتطلع باتا فى محنته إلى معبود الشمس رع حر آختى ، وناجاه : «مولاى الكريم أنت تفصل بين الآثم والبرىء» . فاستجاب رع لدعائه وفصل بينه وبين أخيه بنهر عظيم ملأته التماسيح . وضرب الأخ الأكبر كفيه من الغيظ أسفاً ، فناداه أخوه من الضفة الأخرى : «إلزم مكانك حتى يطلع رب الشمس ونحتكم إليه» .

وتجلى رب الشمس رع حر آختى مع الصباح ، وتطلع كل من الأخين إلى الآخر . فقال الأصغر لأخيه : «لم طاردتنى لتقتلنى قبل أن تستمع إلى دفاعى ؟ الست أخاك الأصغر وأنت أب لى ؟ إنك حين بعثتنى لآتيك بالبذور دعتنى امرأتك إلى الخنا ، ولكنها روت لك العكس» . ثم قص قصته عليه ، وخنقته العبرات ، وأراد أن يحسم القضية فاستل بوصة حادة فخصى نفسه أو قطع إحليله ورماه فى الماء ، ليثبت لأخيه زهده فى الخنا وأهل الخنا ، وكاد أن يغشى عليه من فرط الألم . وندم الأخ الأكبر على ما كان من تهوره ، ولم يتمالك نفسه فبكى ولكنه عجز عن أن يصل إلى أخيه ليسترضيه خوفاً من التماسيح .

ونادى باتا أخاه مرة أخرى «إذا ظننت بى السوء مرة ، أفلا تذكرت لى خيراً فعلته من أجلك ؟ عد إلى دارك واجمع ماشيتك ، فلن أمكث فى أرض تعيش فيها ، وسأذهب إلى وادى الأرز . وأرجو أن تهرع إلى نجدتى إذا علمت أن سوءا ألم بى ، ولسوف أنزع قلبى بنفسى وأضعه فوق زهرة شجرة أرز . فإن

حدث أن اجتث أحد الشجرة وسقط قلبى فابحث عنه ، ولا تمل البحث ولو أنفقت فيه سبع سنين ، فإذا وجدته ضعه فى ماء بارد ، ترد على الحياة . ولسوف تعلم آية سقوطه حين تقدم إليك كأس جعة فتجدها أزبدت واعتكرت ، فإن حدث ذلك فلا تتوان عن الرحيل إلى ونجدتى» .

وانطلق الفتى إلى مصيره وحال سبيله . وعاد أخوه إلى داره يحثو التراب على شعره ويضع يده على رأسه ، ثم اندفع هائجاً فذبح زوجته ورمى جسدها إلى الكلاب ، وعاش يبكى أخاه .

وأسرفت القصة فى الخيال وتصوير المعجزات ، وروت أن باتا حين فارق أخاه بلغ وادى الأرز فى لبنان ، وأن الأرباب عوضوه هناك عن عفته بأنثى رائعة الجمال ، أحبها وأخلص لها ، ولكنها عاشرته هى الأخرى على دخل ، ربما بعد أن وجدته عنينا . ثم حدث أن نقلت أمواج البحر خصلة جزلة من شعرها إلى حيث يوجد ملك مصر ، فسحره عطرها وأرسل رسله يبحثون عن صاحبتها ، فقتلهم باتا إلا واحداً عاد إليه يخبره بمقتل زملائه . وعاد الفرعون فأرسل إليها جماعة أخرى ومعهم امرأة عجوز تحمل إليها عطاياه ، فقبلت الزوجة هداياه وانجذبت إلى سلطانه ، وصحبت رسله وسافرت إليه وتقربت منه ، وأوحت إليه بإهلاك زوجها وقطع الشجرة التى ائتمنها على قلبه ، فاستجاب الملك لكيدها ، وأمر بأن تجتث الشجرة من جذورها ، فمات باتا .

ولكن أخاه تنبه إلى آية اعتكار كأس الجعة فى يده فظل يبحث عن قلب أخيه ثلاث سنين حتى وجده ، وتضرع إلى الأرباب فبعثوه فى خلق جديد . وأراد باتا فى بعثه الجديد أن يرد على زوجته عاقبة غدرها ، فتنكر لها فى هيئة فحل شديد مرة ، وهيئة شجرة مثمرة مرة ، وكلما كشفت أمره حرضت زوجها الفرعون على إهلاكه ، ولكنها ظلت تحيا فى نعيم فاتر وقلق متصل حتى حصحص الحق ، وعوض الأرباب زوجها القديم بعرش مصر وملكها العريض ، فقبض رجاله عليها ، ولم يشأ هو أن يقضى فيها بنفسه ، وتحاكم معها إلى القضاة ، فأدانوها فى حضرة الحتحورات المقدسة ، ولقيت حتفها

ذبحا جزاء جرمها . واعتبر المثقفون المصريون هذه القصة من عيون الأدب المقدس .

وصورت الأساطير المصرية الدينية لبعض الربات بطشة دونها بطشات الأرباب الذكور ، فتخيلت وراء الزوابع والأعاصير العنيفة الربة «باسطة» التى صورت برأس قطة . وتخيلت للحرب ربة أخرى وهى «سخمة» أى المقتدرة وكانت تصور برأس لبؤة ، كما جعلت من رموز الربة نيت قوساً وجعبة سهام باعتبارها من ربات الحرب وحماة الملكية ، . . . وهلم جرا .

وزعمت إحدى هذه الأساطير أن رب الشمس رع بعد أن أوجد ذاته بذاته وخلق الدنيا وأصبح ملكاً على الأرباب والبشر أجمعين ، تقدمت به السن وشاخ ، فتآمر ضده فريق من أشرار الناس ، وكفروا بنعمته وانتشروا فى الصحارى يعيثون فساداً فيها ، فشق عليه كفرهم وطغيانهم ، واستشار بقية الأرباب الكبار فى أمرهم ، فأفتاه شيخهم «نون» ألا يواجه العصاة بشخصه خشية أن يهلكوا وتفنى الدنيا معهم . ودعاه إلى أن يبعث عليهم عينه . فأخذ رع الإله الأكبر بمشورته وسلط عليهم عينه ، فتشكلت العين فى هيئة المعبودة حتحور ، وفتكت بالعصاة فتكا ذريعا وشربت من دمائهم . واستمرأت طعم الدم ولذة الانتقام بحيث بدأت تأخذ أبرياء الناس بجريرة العصاة ، وأوشكت بهذا أن تفنى البشر أجمعين . لولا أن تدارك الرب الأكبر البشر برحمته ، وأوحى إلى أوليائه أن يتحايلوا على فتاته العاتية بشراب مسكر عساه يبعث التراخى فى جسدها ويصرفها عن عنفها . فرووا الحقول بأنهار من الجعة ، وخلطوا الجعة بمسحوق أحمر جلبوه من أسوان (حيث يوجد أوكسيد الحديد) . فلما رأته حتحور حسبته دما مسفوكاً ، وأوغلت فيه وشربت منه بشره حتى انتشت ، ثم شعرت بخدر لذيذ ، وتراخت عن التمادى فى القتل والعنف . ونجا الناس من بطشها بفضل ربها الذى غلبت رحمته على نقمته ، وهى خاصية كريمة له رددتها عنه عدة نصوص أخر .

وفى مجال الواقع تطرقت المشكلات الأسرية والخلافات الزوجية إلى القصور الملكية ذاتها ، من حين إلى حين . ورغم تحفظ النصوص المصرية

القديمة فى الخوض فيها والإسهاب فى تفاصيلها ، اشتهرت منها حالتان على أقل تقدير . وترجع أولاهما إلى فترة من القرن الرابع والعشرين ق . م . حيث اتهم بيبى الأول زوجته إمتس فى أمر أتته وربما اتهم معها وزيره أيضاً ، وهو أمر لم تفصح النصوص المعروفة حتى الآن عن كنهه ، وقد يكون خيانة زوجية ، أو تآمرا من هذه الزوجة على إحدى ضرائرها الأثيرات لدى زوجها ، أو تآمرا على أحد أبناء هذه الضرائر للحيلولة دون بلوغه العرش ، أو تآمرا على زوجها الفرعون نفسه . ولم يشأ الملك بيبى أن ينفرد بمساءله زوجته أو إدانتها ، وعهد إلى أحد كبار رجال بلاطه وهو «ونى» بالتحقيق معها ، فأتمه ورفع إليه تقريره . ومرة أخرى لم يسجل التاريخ فحوى هذا التقرير ولا قرار الملك بشأنه ــ ولكنه سجل من ناحية أخرى أن الملك بيبى تزوج (بعدها) بابنة والى الصعيد وكبير أعيان جرجا فى عهده ، وأنجب منها ولى عهده مرنرع ، وربما تزوج كذلك بأختها (بعد وفاتها ؟) وأنجب منها ولدا آخر ولى العرش كذلك بعد أخيه باسم بيبى (الثانى) .

وسجلت أنباء الحالة الأخرى فى وثيقة عن عهد الملك رمسيس الثالث فى فترة من القرن الثانى عشر ق . م . وكانت مؤامرة صريحة دبرتها زوجة له ذاع غضبه عليها إلى حد أن تجاهل الفنانون إثبات اسمها مع بعض صورها فى معبد شيد فى عهده . وربما كانت قد أحست برغبته فى إقصاء ولدها بنتاورة عن ولاية العهد ، فتآمرت مع بعض سقاة البلاط وحريمه وحراسه وخدمه ليعاونوها فى مسعاها . واستعان المتآمرون بالسحر أو ما توهموا أنه السحر ، ووجدوا فى مكتبة القصر الملكى ما يهديهم إلى عمل تماثيل من الشمع صنعوها على هيئة حراس الملك وتلوا عليها تعاويذ خاصة ليلقوا على أصحابها السبات ويضعفوا عزائمهم . ولكن المؤامرة انكشف أمرها وتولى التحقيق فيها ١٤ محققاً وقاضيا انتهوا إلى إدانة الأمير بنتاورة وثلاثة من أعوانه الكبار وتركوا لهم بأمر الملك أن ينتحروا بأنفسهم . وقيل عن عدد من نسوة المتآمرين إنهن كن يتبادلن الرسائل مع أمهاتهن وأخواتهن سراً ، وحرضن شقيق واحدة منهن ، وكان من ضباط الجيش المصرى فى النوبة ، على إثارة الشعب وشق عصا الطاعة . وبعد تحقيق طويل قيل عن ست نساء إنهن وجدن مذنبات ونفذت فيهن عقوبة رادعة ، كما

اتهمت اثنتان برشوة اثنين من المحققين القضاة عن طريق الغواية وشرب الخمر . أما مدى ما أصاب الملك خلال المؤامرة وما صار إليه مآل الملكة المتآمرة فكلاهما لازال موضعاً للجدل حتى الآن . وهكذا لم تخل أيام الأسر المالكة نفسها من مشكلات لولا أنها كانت لحسن الحظ قليلة متباعدة .

وإذا بلغ الأمر مثل هذا المبلغ فى الأوساط العليا من المجتمع ، ولوبصور استثنائية متباعدة ، فلا يبعد أن ما هو أسوأ منه من العيوب الاجتماعية كان يتكرر من حين إلى آخر فى أسر الطوائف الدنيا من المجتمع لاسيما طوائف العمال وصغار أرباب الحرف وبعض المشردين من أشباه الغجر . وظهر فى بعض تقارير قرية عمال المقابر فى منطقة دير المدينة بغرب طيبة ما يعلل تغيب عامل عن عمله بمشاجرته مع زوجته ، أو أنها عضته عضة خطرة . ومنها ما ندد بسلوك خمس نساء وصفت إحداهن بأنها زوجة رجل معين ، بينما قيل عن الأربع الباقيات إنهن كن يعاشرن عمالاً . وبلغ الأمر أن تطاول ابن آبق على أبيه واتهمه بأنه اعتدى على ثلاث نسوة من نساء بلده ــ وكما أدينت بعض النساء على سوء السلوك أدين بعضهن كذلك بارتكاب السرقة وشهادة الزور . ولم تختلف عقوبتهن كثيراً فى كل حالة عما كان يعاقب بمثلها الرجال .

ونسب المؤرخ ديودور الصقلى إلى قوانين العقوبات المصرية القديمة أحكاماً لا تخلو من غرابة فيما يختص بعقوبة بعض الجرائم الأسرية . ومنها فيما روى إحبار من يقتلون أولادهم على احتضان جثة قتيلهم ثلاثة أيام تباعاً ليستشعروا الألم ويفكروا فى التوبة ، وذلك عوضاً عن الاقتصاص منهم بالقتل المباشر وتقديراً للأمر الواقع من أنهم هم الذين وهبوا أبناءهم فى الأصل فرصة الحياة . وعلى العكس من ذلك قررت شدة التمثيل البدنى بالأبناء الذين يقتلون من منحوهم الحياة أى الآباء ، بحيث تقطع أجسادهم إربا إربا وتشوى على فراش من قتاد . ثم النص على تأجيل إعدام المذنبة الحامل إلى أن تضع حملها حتى لا يؤخذ الجنين البرىء بذنبها . واستشهد ديودور فى كل ذلك بتبريرات لا تخلو من منطق سليم وإن صعب التسليم بروايته عنها جملة أو رفضها جملة فى ضوء قلة المصادر القانونية المصرية القديمة المعروفة حتى الآن .

الفصل الثالث

شباب ما قبل الزواج ، وأزياء الاناث والرجال

تراوح اختلاط الفتيان والفتيات قبل الزواج ، فى مصر القديمة ، بين اتجاهين ، اتجاه جاد متحفظ أصر الآباء والحكماء والمربون على ضرورة الالتزام به . وكانوا يحذرون فتيانهم فيه من زيارة البيوت فى غيبة رجالها بغير استئذان . وينكرون على زائر البيت ، رئيساً كان لصاحبه أو صديقاً أو شقيقاً ، أن يخالط نساءه وفتياته . وكان اتجاها استجاب له معظم الأبناء والبنات بوحى الطاعة الغالبة وحب الاحتشام .

وغالباً ما استقلت غرف النساء والمعيشة فى البيوت الكبيرة بطابق خاص أو جناح منفرد يميزها عن غرف الضيوف وعن أماكن إقامة الأتباع .

وقابل هذا الاتجاه اتجاه آخر أحله لأنفسهم أهل العشق والهيام والمراهقون من الفتية والفتيات . وعبرت عنه بضع أغنيات وأهازيج غزلية باقية يصعب أداؤ ها الآن بأوزانها الفعلية القديمة ، ويكفى إيجاز فحواها هنا بعبارات مرسلة . وفيها يصر الفتى على أنه لو فصل بينه وبين محبوبته بحر تخطاه ، أو تمساح لاقاه . ويود آخر لو تمارض فزارته حبيبته مع من يعودونه من الأقارب

والخلان . ويتمنى ثالث لو وجد باب فتاته هشا من قش جاف ومزلاجه من غاب فيدفعه إليها غير وجل ولا هياب . وتزيد الرومانسية برابع فيتمنى أن يسحر وصيفة لمعشوقته حتى تحل له رؤ ياها . أو يصبح تابعا لها يسمع أوامرها ونواهيها . أو يسحر خاتما فى إصبعها فيعلق به ولا يفارقه . ويتطلع خامس إلى عون معبوداته عساهم يهيئون له لقاء الحبيبة دون أن يتوهم فى لقائه بها ما يجافى العقيدة . ويفجر سادس فيتعوذ برقية يقول لمعبوده فيها : «لئن لم تجعلها تتبعنى فلسوف أشعلن ناراً فى بوزير ولأحرقن ضريح أوزير» . وكان أوزير هذا الذى هدد الفتى بإحراق ضريحه هو أحب معبود إلى قلوب قدماء المصريين .

وفى سياق ترانيم الهوى العذرى ، وفى شىء من التخفف من قيود اللغة الفصحى ، قد تشدو الفتاة العاشقة بدورها مرددة فى تعبيرات دارجة :

صوت الحمام هَدِّل وقال :   الصبح شقشق وعلى فين المُرام !
عنى عنى يا فرخ الحمام   عنى عنى وخِفْ المَلام !
ده خَبِّى حبيبى فى فرش المنام   وسَعْد قلبى عَدِّى المرام !
زال البعاد أبداً ما أفارقك   وإيدى فى إيدك دايما معاك
أروح وآجى دائماً أصاحبك   فى كل سِكة على هواك
هو اللى سوَّانى ست البنات   وما عمره أبداً خان الوداد !

وتقول أخرى :

افتكر قلبى هواك   وأنا بسرَّح نُصْ شعرى
جيت أشوفك وَعْد بَدرِى   ونسيت أنا نُصْ شعرى
لو تسيبنى أروح لحالى   أعمل ضفايرى وأعود إليك . . .

وفى أغان أخرى قصيرة قد تهفو بعض الفتيات إلى ما هفا إليه أشقياء الشبان . فيضقن برقابة الأم تارة ، ويستعذبنها لتشويق ابن الجيران تارة أخرى . ويرضيهن أن يكتوى المحب بنار الجوى تارة ، ويبحن بما يكتوين به من نار العناد تارة سواها . ويبلغ الإصرار بإحداهن إلى أن تعلن لأهلها أنها لن

تتخلى عن حِبِّها حتى ولو آذوها بالعصى وجريد النخيل والشوم ، أو ساقوها شمالاً إلى الشام وشردوها جنوباً إلى النوبة والسودان . وتتخيل أخرى نفسها رائحة غادية أمام إلفها عساه يعلق بها ويهجر أمه وأشقاءه من أجلها . أو ترنو إلى السباحة فى غدير قريب حتى يراها بغلائلها البيض ويتحرر من التردد وخشية التقاليد . وتتعلل أخرى لأمها بالخروج لقنص الطيور وتتمنى أن يقع فتاها فى حبائلها عوضاً عن الطيور . وحينما تلمحه يشرد ذهنها عن صيدها وتلتهم الطيور طعمها ، وتعود وهى لا تدرى ماذا تقول لأمها !

وينفذ صبر فتاة أخيرة ، فتتعجل النهاية السعيدة ، وتحادث نفسها وهى تتخيل فتاها مستمعاً لها ، وتقول : هلا بعثت خبراً لأمى ! يا أخى ها قد نذرت لك نفسى ، وبشَّرتنى الذهبية (حتحور) بأن أكون عروساً لك . تعال إذن وعجل حتى أشهد بهاك ، ويسعد أبى وأمى (برؤ ياك) ، ويهلل لك الرجال ويعلنونك أخى !

وفى هذا الحديث المتخيل ما يشير عرضاً إلى خطبة البنت من الأم أحياناً ، والرضى من العروس ، وتزكية العريس ، واستخارة ربة الحب (حتحور) ، وموافقة الأبوين ، ووجود المدعوين ، ثم إعلان أخوة القران السعيد (بعد الإجراء الأهم وهو إجراء العقد) .

وفى نثر منظوم ، صور عاشق مصرى قديم مقومات الجمال فى محبوبته بأنها «بهية الطلعة ، بشرتها وضاء ، نجلاء العينين واللحظ ، حلوة الشفتين ، عذبة الحديث ، لا تنطق بفضول . طويلة الجيد ، نيرة الشدى ، كستنائية الشعر ، أناملها كالزهر ، ممتلئة العجز ، نحيلة الخصر ، متزنة الخطو . . . » .

* * *

زينة وأزياء النساء

إشباعاً لغريزة الأنثى ، أى أنثى ، فى حب التجمل والأناقة ، والفتنة والتزين ، تجملت المصريات بما استطعن التزين به ، منذ أوائل الألف الخامس قبل الميلاد على أقل تقدير ، بناء على ما صورن به فى المناظر وعثر عليه من أدوات زينتهن فى بقايا المساكن والمقابر . واستعن بالكحل والخضاب والأصباغ والحلى والطيوب ومختلف أزياء الثياب وتصفيفات الشعور ، بما تناسب مع تنوع ما عاصرنه من العهود والبيئات والأذواق وما تلاءم مع مختلف ما توافر لديهن من القدرات المادية ، ونوعية المناسبات ، شأنهن فى ذلك شأن غيرهن من بنات حواء .

واعتادت المصرية القديمة حين زينتها أن تزجج حاجبيها وتظلل جفنيها وأهداب عينيها بالكحل الأسود . وتمتد به قليلاً فى ركن العين من ناحية الأنف ، كما تمتد به أفقياً مع شرطة العين ناحية الصدغ حتى تبدو العين أكثر اتساعا ويزداد بريقها أو حوارها تألقاً . ثم تلون ما تحت الجفن الأسفل بالكحل الأخضر .

وكانت تصبغ شفتيها بحمرة كالعقيق ، وتلين بشرتها وتضمخ جسمها بدهون عطرة . كما تغذى شعرها وتزيده نعومة ولمعاناً بأنواع من الزيوت .

وكانت تخضب كفيها وقدميها بالحناء ، وتطوق جيدها وجبهتها وجانب رأسها بالزهور . وتتطيب بالطيوب ، وتعطر فمها وأنفاسها بلدائن طيبة النكهة . وتحب تبخير الثياب . فضلا على التزين بما تستطيع اقتناءه من العقود والقلائد ، وأساور الرسغين والدمالج ، ثم الأقراط والخلاخيل والخواتم والتمائم ، ودبابيس الشعر وأكاليل الرأس ، وما إلى ذلك من مصوغات أبدع الصاغة القدماء تشكيل أنواعها الفاخرة أيما إبداع ، بحيث لازالت مجموعات الفنون ومتاحف الآثار العالمية تفخر بروعة ما تقتنيه منها حتى الآن .

وتنـوعت الثيـاب النسـائيـة ، كـما تنـوعت الحـلى ، بتنـوع العصـور والإمكانات . وسوف نكتفى هنا بخطوطها العامة دون تفاصيلها الحِرْفية . فقد شاعت المنسوجات الكتانية بنوعياتها المتفاوتـة (للنساء والـرجال) دون المنسوجات الصـوفية . واستحبت المصـرية لثيـابها اللون الـواحد فى أغلب الأحوال . وفضلت اللون الأبيض ، الذى يتناسب مع سمرتها أو خمريتها أكثر مما عداه من الألوان،إلى جانب نصاعته وسهولة تنظيفه . وقليلاً ما استحبت معه اللون الليمونى أو المزعفر ، واللون الأحمـر القانى ، أو اللون الأخضـر الزاهى .

وكـانت ثيابهـا فى أغلبها طـويلة ، ولكن أزياءهـا تنوعت بـين الضيقة المحبوكة على الجسد بحيث تجسم مفاتنه وتبرز تقاسيمه ، وبين الفضفـاضة الرقيقة التى تكشف بدورها عن المفـاتن ولا تحجب جمال البـدن . وتنوعت الغلالات من الثياب بين الطيلسان أو الوشاح وما يشبه الروب المنزلى ، وبين الرقيقة ذات الحمائل التى تكشف عن كل أو عن جزء من النحر والكتفين ، وتهبط حمائلها مستقيمة أو مائلة أو متقـاطعة عـلى الصدر بمـا يشبه القميص الداخلى ، فضلاً على الثياب ذات الكتف الأيسر دون الكتف الأيمن الـذى يقص منه ما يقطع تحت الإبط .

وبدأت الأزياء المصرية بثياب قليلة الزخارف والكلفة ، واكتفت قديماً بتوشية فتحة العنق ونثر بعض الوريدات المخيطة فوق النهدين . ثم تطورت مع الزمن واستحبت التموجات والثنيـات (التى تشبه زخـارف البليسيه) ، والكشكشة عند الثديين وتحت الإبطين وفوق السرة ، ومختلف أشغال الإبرة ، ثم ما يزين هذه بتلك من شرائط ملونة ، وزخارف تشبه فلوس السمك وريش الطيور ، وأحزمة موشاة ومرصعة .

وقد تكتفى الأنثى فى زينتها بثوب فاخر واحد ، أو تلبس ثوبين أسفلهما شفاف وثانيهما عبارة عن شبيكة خرز كاسية متنوعة الزخارف ، أو شملة ذات لون واحد تلف الجسد كالعباءة . وقد تزيد الأنثى الثرية فترتدى ثلاثة أثواب

أولها رقيق ، وأوسطها ثقيل ، وثالثها واسع هفهاف . ومن ثياب السهرة ما كان رقيقا يلبس فوق القميص ويبدأ من فوق النهدين بعقدة تتوسطهما ، كما أن منها ما أشبه ثوب البليسيه مطرز الحواشي والأهداب . وما إلى ذلك من أزياء ندع تفصيلها للمختصين فيها . وكان من الطبيعي أنه كلما تقادم زى انتقل إلى الأوساط الأقل وابتدعت نساء الطبقة العليا لنفسها زياً غيره أو أزياء .

وتنوعت تصفيفات الشعر أيضاً ، كما تنوعت الحلى والثياب ، تبعاً لموضة العصر ، وطبيعة المناسبات ، وبناء على الذوق الخاص . فقد تستحب المصرية الشعر القصير نسبياً وترخيه حيناً على جانبى وجهها إلى ما تحت الأذنين أو حتى الكتفين على هيئة هالة البدر ، حتى يزيد وجهها استدارة واستنارة . أو تصففه حيناً آخر على هيئة القوقعة حول رأسها وكتفيها . وقد تستحب الأنثى الشعر الطويل وترسل غدائره العريضة ملفوفة الأطراف منحدرة على كتفيها وعلى صدرها حتى نهديها . أو تفرق شعرها الطويل أيضاً فرقين ممشطين ، فرقاً يزين الظهر وفرقاً يزين جانبى النحر . أو ترخيه كله ممشطاً طليقاً على الظهر .

ثم هى قد تضفر شعرها فى ضفائر طويلة مرسلة على ظهرها ، أو تجمعه فى غديرة واحدة سميكة خلف رأسها وتعقصه على هيئة ما يسمى الآن ذيل الحصان . وقد تضفره فى ضفائر قصيرة متجاورة وتطلق بعض شعيراته على صدغها لتزيد نورانية وجهها وجاذبيته .

وغالباً ما كانت السيدة الثرية ترتدى باروكة الشعر المستعار فى السهرات والمحافل العامة ، وترخيه مرسلاً حتى رد فيها ، أو تضفره فى جدائل طويلة وتعقد أطرافها السفلى على هيئة الحواشي والأهداب . وقد تشترى الباروكة مجعدة الشعر فى نمنمات دقيقة للغاية مثلثة أو مربعة أو مستديرة . وكثيراً ما استعاضت عن ثقل الباروكة الكاملة بخصل وضفائر أخف حملاً تثبتها فى شعرها الطبيعى .

وكانت المرأة تغطى شعرها أحيانا بطرحة تتفنن فى تشكيل هيئتها . وتزين جبهتها بإكليل تزينه وريدات ملونة ، أو عصابة مزركشة تتدلى من خلفيتها

شرائط من الخرز الملون المنظوم . وتميز غطاء رأس الملكات المصريات بتشكيله هو وحلياته على هيئة أنثى العقاب المقدسة التى ترخى جناحيها الطويلين على جانبى رأس الملكة ، من قبيل الحماية الرمزية والزينة . وقد تجمع الملكة شعرها تحت غطاء آخر أسطوانى الشكل مرتفع يتناسب مع بهاء مظهرها وعلو قدرها ، فضلاً عن ارتدائها تيجانا وأكاليل معينة فى مناسبات رسمية خاصة .

وعندما اختلطت المصريات بالإغريقيات والمتأغرقات ثم الرومانيات خلال العصور المتأخرة من تاريخ مصر القديم ، استخدمن من تصفيفات الشعر ما يكاد ينافس تصفيفات العصر الحاضر تنوعاً وحبكة ، وجمالاً ورقة .

* * *

وعلى أية حال ، فتلك صور براقة مشرقة للنساء المنعمات كما ظهرن فى مجالات الحياة العامة والخاصة ، أو كما ظهرن فى التماثيل وصورن على جدران المقابر واللوحات والنصب فى مناظر الحياة الدنيا والحياة الآخرة . أما داخل البيوت فالتفاوت بينهن متوقع . فمنهن المتأنقة ومنهن المهملة فى أمر زينتها . ومنهن من يساعدها رغد الحياة وكثرة الجوارى والخدم على الاحتفاظ بجمالها وأناقتها ، كما أن منهن من يترهل جسدها وتضمر حيويتها وتقل أناقتها مع تقدم العمر ومر الزمن .

وأما ذوات الثوب الواحد ، وهن نساء الطوائف العادية والفئات الكادحة وما أكثر عددهن فى الريف والأحياء الشعبية من المدن ، فكانت لهن زينتهن البسيطة من الكحل والمساحيق الرخيصة ، والضفائر الطبيعية والصناعية ، والحلى المواضعة ، وملابس الأعياد الزاهية ، وقلما استخدمن الوشم البسيط . وكانت لهن متاعبهن المألوفة من أثر الزواج المبكر وكثرة العيال وتعدد مطالب البيوت ، مع رقة الحال ، والاضطرار أحياناً إلى العمل لمساعدة الزوج فى الحقل والسوق ، أو الكدح فى سبيل الكفاف فى مصانع الغزل والنسيج والحصير والسلال والحبال ، والخدمة فى بيوت السراة لأداء أعمالها اليومية من طحين وعجين وخبيز وغسيل ، وإعداد الجعة وتحضير العطور ،

وهى أعمال كثيراً ما صورتهن مناظر المقابر وتماثيلها الصغيرة يؤدينها فرادى وجماعات .

وظهرت فى بعض هذه المناظر عاملات الحقول القرويات بملابس نصفية متواضعة تكاد تشبه ملابس العمال الرجال ، حيث يشاركن فى جمع سيقان الكتان وتنديتها ، وتذرية وغربلة الغلال .

* * *

وثمة ظاهرة فنية واجتماعية معينة نود لفت النظر إليها وإلى نفسيراتنا لمسبباتها (فيما أوردناه بشأنها فى أحد بحوثنا السابقة عن الفن المصرى القديم) .

فكثيراً ما تظهر المصريات فى مناظر وتماثيل المقابر والمعابد القديمة سافرات بثياب لا تكاد تستر أدق تفاصيل الجسد الداخلية ، نظراً لفرط حبكتها ، أو فرط رقتها . وقد لا يصور من ثوب الأنثى فى بعض المناظر الصغيرة أحياناً غير مجرد خطوط تجريدية عامة تحدد نهايات ذيله وأكمامه ، وتكاد ترمز بالكاد إلى وحوده ، كما قد يستعان بتدرج سطوح النقش البارز فى مناظر الإناث أحياناً على إظهار مفاتن الارتفاع والانخفاض والانحناء والاستدارة فى أجسامهن فى جرأة وصراحة .

وليس من المعقول بطبيعة الحال أن الحرائر المصريات كن كذلك فى الحياة الفعلية ، يظهرن عاريات أو كالعاريات ، ويضحين بقيم الحشمة المأثورة عن المجتمع المصرى القديم (أو الحديث) فى معظم عصوره ، لاسيما وأن بعض صورهن الأخرى قد أظهرتهن بثياب ضافية كاسية فعلاً وفى عناية واضحة بالوقار والهيبة .

وإذا تجاوزنا عن الصور شبه العارية للعاملات الفقيرات بحكم الضرورة ، والجوارى والراقصات بحكم الوضع والمهنة ، فإنما نعتقد أن تصوير ثياب نساء الفئات الثرية والوسطى رقيقة محبوكة ، أو شبه لاصقة ، وغير ساترة ، قد تأثر بثلاثة عوامل متداخلة . ومنها أن نسب الرسم والنحت التى التزم الفنان المصرى القديم بها فى تصوير الأنثى كانت تنطبق على الجسم

العارى أساساً ، وكان يعز عليه أن يضحى بمجهوده فى أدائها وإبرازها لو غطى عليها بثياب ثقيلة كاسية . ومن أجل هذا كان يصور جسم الأنثى بثوبه المحبوك الرقيق كأنه جسم عار ، أو يصوره عارياً أولاً ثم يرسم الثوب عليه بألوان خفيفة . وغالبا ما كان يبرز مفاتن الجسم فى كل حالة كما يتخيلها وبما يليق بصاحبتها ، وليس بالضرورة كما تبدو عليه فى عالم الواقع ، إلا فى حالات استثنائية خاصة .

ولعله كان يعتقد أن تصوير الأنثى هكذا على جدران مقبرتها أو مقبرة زوجها ، هو بمثابة تصويرها فى حياتها الأسرية الخاصة داخل بيتها حيث لا حرج عليها فى أن تتخفف من بعض ثيابها كلما شاءت ، لاسيما وأن تجسيد مفاتن الأنثى هو فى حد ذاته أمر يستهويها فى كل عصر ، ويرضيها كما يرضى زوجها (لنفسه) فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة . ولمّا تعودت العيون أخيراً على مثل هذا التصوير لم تعد ترى فيه شيئا ينافى الحشمة أو يجافى الذوق .

وأخيراً ومع شىء من التجاوز ، فلا بأس من الاستشهاد جزئياً بما تبدو به الآن أزياء السهرات للنساء فى الحفلات الخاصة ، وكيف تبدو أبعد ما تكون عن تمثيل أزيائهن الفعلية فى الحياة اليومية ، ولا يباح ارتداؤها إلا فى مناسبات معينة لا تكاد تتعداها .

وعلى أية حال فلم يبلغ شغف الفنانين المصريين بإظهار مواضع الفتنة فى النساء حد الإسفاف . ولم يتجاوزه إلى كشف مواضع العفة للأنثى إلا فى القليل النادر وفيما يختص بالجوارى والراقصات لاسيما خلال فترات التحرر أو التحلل التى كانت تنتاب المجتمع من حين إلى آخر . وقد استشهدنا لهذا بأربع لوحات راقصة صورت أقدمها راقصاتها محتشمات بملابس ساترة وحركات بطيئة رتيبة ، وصورت أخرى راقصاتها بملابس نصفية يرفعن سيقانهن فى رشاقة تشبه أوضاع راقصات الباليه الحالية ، بينما صورت ثالثتها جواريها ينثنين فى دلال بملابس نصفية هفهافة شفافة تكشف عما تحتها ، وصورت الرابعة جواريها عاريات تماماً ترفع الواحدة منهن ساقها العارية حتى مستوى بطنها أو حتى تلامس بها كتف أختها .

زينة وأزياء الشباب والرجال

يظهر أغلب المصريين القدامى فى مناظر وتماثيل المقابر والمعابد عراة الصدر والساقين أحيانا ، ويرتدون نقبة كتانية (أى تنورة أو إزارا أو فوطة . . .) قد تكون قصيرة تمتد من تحت السرة إلى منتصف الفخذ فوق الركبة ، أو تكون طويلة نوعاً تمتد من أسفل الخصر حتى ما فوق العرقوبين . وتتنوع طرز وتفاصيل هذه النقبة ، من حيث سمك نسيجها ، وعرض قماشها ، وحبكتها أو اتساعها ، وعدد طياتها ، وتفاصيل زخارفها ، ونوعية أحزمتها ومشابكها . . . ، بما يوائم مناسبات ارتدائها ، ومكانة أصحابها ، وأذواق عصرها . وقد يرتدى الرجل نقبتين ، نقبة داخلية محبوكة قصيرة ونقبة خارجية طويلة متسعة .

ومرة أخرى لم يعبر هذا العرى النصفى عن حقيقة أزياء الرجال المصريين فى حياتهم الفعلية دائماً ، وذلك على عكس ما خدع به كثير من المحدثين فيما يصورونه أو يتمثلونه حتى الآن عن رجال مصر القديمة .

والواقع أننا إذا عدونا حالات العرى النصفى الاضطرارى للفقراء والعاملين من الزارعين وأرباب الحرف فى حمارة القيظ فى صيف مصر الحار ، وعدونا كذلك نوعيات الملابس الخاصة بطوائف مهنية معينة مثل الجنود والكهنة ، والراقصين والرياضيين ، ألفينا أن العرى النصفى لرجال الطبقتين العليا والوسطى فى مصر القديمة كان عريا رمزيا أو عريا مؤقتا ، فى معظم أحواله . وقد استهدف بدوره عدة أغراض نوهنا بها فى بحثنا سالف الذكر عن الفن المصرى القديم . ومن هذه الأغراض رغبة إظهار كبار الشخصيات فى لحظات ومناسبات مقدسة يتجردون فيها من غالبية ثيابهم أثناء التعبد للأرباب فى المعابد ، أو أثناء التأهب للقياهم على أعتاب الآخرة فى المقابر . وهو غرض كان يستتبعه ظهورهم حفاة كذلك على الرغم من تعدد أنواع النعال والصنادل التى كانوا ينتعلونها فى حياتهم العملية .

وثمة عرض آخر يتصل بروح المحافظة على التقاليد ، وهو ظهور كبار الشخصيات بملابس قومية متميزة فى مناسبات ومحافل عامة أو خاصة يستعيدون بها هيئات أجدادهم الأقدمين خلال حياتهم الأولية المبكرة فى عصور ما قبل التاريخ حينما كانوا يكتفون بارتداء القليل والبسيط من الثياب ، ومن أخصها قراب العورة وحزام الوسط ، والنقبة القصيرة أو الطويلة بل وجلود الفهود أحياناً .

ومع شىء من التجوز لا بأس من مقارنة كل من هذين الوضعين الاستثنائيين بما لازال بعض الأفراد من الأفارقه والأسيويين ، بل والاسكتلنديين البريطانيين أيضاً ، يستحبون أن يظهروا به من ملابس تقليدية قديمة (مثل الجونلة المخططة) خلال مناسباتهم القومية . وكذلك ما لازال بعض العرب يستحبون ارتداءه من الملابس البسيطة (مثل الفوطة) فى حياتهم المنزلية الخاصة ، وهى ملابس تختلف قليلاً أو كثيراً عن ملابسهم فى الحياة العامة ، وإن لم تقل كثيراً عنها أهمية وأناقة من وجهة نظر أصحابها على أقل تقدير .

ويزكى هذه الآراء فى تفسير العرى النصفى للرجال فى مصر القديمة وغلبة الرمزية عليه أكثر من الواقعية ، وجود مناظر وتماثيل مصرية أخرى كثيرة التزم الفنانون فيها بتصوير واقع الحال من الثياب الفعلية للشبيبة والرجال والشيوخ . فقد أظهروا بعضهم بصديريات ذات أكمام نصفية ، وملابس طويلة تمتد من تحت الصدر مباشرة ، وأخرى كاسية تمتد من الكتفين وفتحة الرقبة حتى قرب القدمين . وقد تكون هذه وتلك ضيقة أو فضفاضة ، رقيقة أو سميكة . وقد يتألف رداء الشخص من ثوب أو ثوبين ، أو ثوب من تحته قميص . وقد يكتسى الرجل بوشاح أو طيلسان أو عباءة . وغالباً ما تزركش هذه وتلك بزخارف وأشرطة وطيات وثنيات تتناسب مع السن والمكانة ، وروح العصر ، والمقدرة المادية ، ونوعية المناسبات .

وكانت زينة الأثرياء والمترفين كثيرة ، ومن أخصها القلائد العريضة

والصدريات ذات الزخارف والصفوف المتعددة ، وحلى المعاصم والدمالج ، وأدوات الأناقة ورموز الشرف من العصى القصيرة والطويلة ، والمذبات ، والمناديل المطوية ، وما إليها .

واستحب أغلب المصريين تقصير شعر الرأس مراعاة للنظافة وللتميز عن هيئات البدو والرعاة والصيادين من الطبقات الدنيا . وارتدى بعضهم القلنسوة الضيقة فى الظروف العادية ، والشعور المستعارة القصيرة والطويلة فى المحافل الخاصة والمناسبات الرسمية . ولم يقل تنوعها لديهم عن تنوع الشعور المستعارة لنسائهم .

وإلى جانب ما يلى الاستشهاد بـه من الدعـوة إلى نظافـة البدن ظـاهره وباطنه ، تعددت أصناف الطيوب والدهون والزيوت العطرة للرجال بما لا يقل كثيراً عن تعدد أصنافها لدى النساء . ولم يقتصر تكحيل العيون على النساء وحدهن وإنما أخذ به بعض الرجال أيضاً ، ولكن بصورة مخففة . ويبدو أنهم كانوا يجدون فيه وقاية للعين من أذى الذباب وبعض أنواع الرمد فضلاً عن غرض التجمل الخفيف .

وكان أغلب المصريين حليقى الشوارب واللحى ، إلا فى حالات قليلة استحب بعضهم فيها تربية الشارب الدقيق الذى يمتد باتساع حافة الشفة العليا ويزيد سمكه فى وسطه عنه فى طرفيه ، وذلك بما يشهد بقدم الابتداع المصرى حتى فى أمور الأناقة (وبما يكاد يشبه أمثاله فى العصر الحديث) وظهرت أولى نماذجه المصرية منذ القرن الثلاثين قبل الميلاد .

وحلت اللحى المستعارة للرجال محل اللحى الطبيعية وتعددت هيئاتها وأطوالها بتعدد مناسباتها الرسمية والدينية ــ إلا فى حالات قليلة بقى فيها ظل للشعر الطبيعى الخفيف على الذقن والفودين والعارضين ، واللحية الصغيرة المدببة أو شبه المربعة أحيانا لبعض الشخصيات .

وكان من الطبيعى أن تمتاز زينة الملوك عن رعاياهم بتيجانهم وصوالجهم وأكاليلهم متعددة الأشكال والألوان والرموز لاسيما خلال المناسبات الرسمية .

واشتهر من أغطية الرأس الملكية لباس الرأس المخطط (أو المنديل ذو الخطوط الأفقية) الذى اقتصر ارتداؤه على الملوك دون غيرهم . وهذه حقيقة تخالف ما يلجأ إليه أغلب المحدثين أيضاً من تعميم ارتدائه على المصريين القدامى حتى العمال والجنود والأتباع . وهو خطأ شائع كثيراً ما نبهنا إلى وجوب تجنَبه فى التمثيليات والمواكب التاريخية الرمزية ، ولكن دون طائل .

واعترافاً بواقع الحال ، سوف يرد فى مناسبة تالية كيف صورت بعض المخطوطات المصرية القديمة ما اندفع إليه المراهقون من شباب عصورها المتأخرة إلى شدة التأنق والرفاهة فى الملابس ، وارتداء الشعور المستعارة التى قد تصل جدائلها الطويلة إلى قرب العرقوبين .

وأخيراً ولغير سبب واضح افتقد المجتمع المصرى منذ أمد طويل جانباً كبيراً مما كان للمصريين القدامى من كلف خاص بالزهور وافتتان برونقها ، فكانوا يزينون بها شعورهم أحياناً ، ويتهادون بها ، ويخرجون بها فى المواكب والأعياد ، بل ويزينون بها موائد الطعام وقرابين الموتى والمعبودات .

* * *

الفصل الرابع

القران وعقود الزواج وتبعات الطلاق

كما يحدث عادة ، كان التزاوج بين الأقارب والمعارف فى المجتمع المصرى القديم أمراً مستحباً وميسراً ، ضماناً للمعرفة بالأصل وتقارب المستويات الاجتماعية ، وتزكية لصلات الرحم ، وإبقاء على ممتلكات الأسرة فى حوزة فروعها بالنسبة لبعض الحالات على أقل تقدير وذلك بغض النظر عما يمكن أن يترتب على التزاوج الداخلى أحياناً من ضعف النسل وتوارث العيوب.

وإذا لم تكن العروس من الأقارب أو المعارف اشترط الأبوان فيما ذكره الحكيم بتاح حوتب أن تكون « معروفة بين أهل بلدتها ، وأن تتوافر فيها خصلتان (أو شرطان) » ، ولو أنه لم يحدد للأسف ماهما هذان الشرطان أو هاتان الخصلتان . وكان الحكيم عنخ شاشنقى أكثر صراحة ، فيما مر بنا ، فى مثل قوله لولده «احذر أن تتخذ فتاة سيئة الطبع زوجة حتى لا تورث أبناءك تربية فاسدة» ، ثم فى قوله لأبى البنات «تخير لابنتك زوجا عاقلاً ولا تلتمس لها زوجاً ثرياً» . ولأمر ما قال كذلك «قد تزوج ابنتك لصائغ ولكن لا تزوج ابنك لابنته» .

ولم تخصص المصادر المصرية الباقية حداً أدنى لسن الزواج ، فيما خلا حالات فردية متأخرة الزمن نصت عرضاً على سن العشرين للعريس ، وسن الرابعة عشرة والثانية عشرة والنصف للعروس . وكان الزواج المبكر مستحباً في أغلب الحالات طالما توافرت له أركانه الأساسية .

وعلى الرغم مما هو معروف عن تداخل المراسم الدينية في معظم وجوه الحياة المصرية القديمة ، إلا أنه لم يتضح في وثائق العصور الفرعونية المبكرة ما ينص صراحة على طقوس دينية تصحب إجراءات الزواج في المعبد أو في المنزل . ولم يعثر على مناظر واضحة تصور محافل الزفاف وعاداتها . ولكن ألمحت إليها بضع قصائد غزلية وأساطير وعقود قليلة تبدأ بالقرن الخامس عشر ق . م . ، ويفهم منها أن الأم كانت تخطِب لولدها أحياناً وتُخطب منها ابنتها أحياناً (وهو ما سبق ذكره أعلاه) .

ولكن غالبا ما كان الأب نفسه هو الذى يتلقى طلب العريس للاقتران بابنته . وقد يتمنع عليه أولاً بتحفظات وشروط كما يحدث حتى الآن ، كأن يرد عليه بأن وقت زواجها لم يحن بعد ، أو يطلب منه أن يعمل على شغل وظيفة مناسبة قبل أن يزفها إليه ، كما اشترط كاهن من القرن السابع ق .م يدعى بادى إيسة على عريس ابنته . ولو أنه تنازل لها بعد زواجها عن داره وهو يظن ككل أب أنه جعل حظها أفضل من حظوظ كل البنات . ويبدو أن هذا الأب كان محقاً في تحفظه ، وأنه أراد لبنته زواج الكماية ، وكانت هى صغيرة لم تتعد الثلاثة عشر ربيعاً بحيث بكت بحرقة لفراق أبيها ورجته أن يصطحبها معه حيث تكون أسعد حالاً مع إخوتها .

وروت بعض القصص أن والد العروس كان يجهزها بما يتناسب مع ثرائه ، أو يوصى لها ببعض أملاكه بمناسبة زواجها كما فعل الأب السابق . وأن العروس كانت تتلقى هدايا ذويها ومعارفها ، وتزف إلى دار عريسها حين المساء في احتفال ما بطبيعة الحال .

وجدير بالذكر أنه على النقيض مما جرت عليه تنظيمات بعض المجتمعات القديمة الأخرى ، لم تتمسك مصر القديمة كثيراً بالفوارق الطبقية والعرقية الحادة فى شئون الزواج والمعاملات . وإنما قام التمايز بين الأسر فى المجتمع على أسس اعتبارية من اختلاف المستويات الثقافية والإمكانات المادية ، أكثر مما سواها . وعلى الرغم كذلك من حرص الأسر الفرعونية على نقاء دمائها الملكية ، إلا أنها لم تمنع أمراءها بل وأميراتها من أن يصهروا إلى ما عداها من الأسر المناسبة لهم فى المجتمع .

وبلغ هذا التسامح الاجتماعى ذروته مبكراً منذ أوائل القرن السادس والعشرين ق . م ، حينما سمح الملك شبسسكاف أحد ملوك الأسرة الرابعة بزواج ابنته الكبرى من شاب يدعى شبسسبتاح كان سليل أسرة كبيرة صعيدية وربى فى قصره وقصر أبيه من قبله . وكانت هى المرة الأولى التى يزوج ملك فيها ابنته من أحد أبناء رعيته ، ليس فى مصر وحدها ، بل وفى العالم القديم كله ، ناهيك بكونها ابنته الكبرى وكونه هو مقدساً لدى شعبه . وأتاحت هذه السابقة المجال لزيجات أخرى مماثلة تالية .

ومر بنا كيف أقدم الملك بيبى الأول أحد ملوك الأسرة السادسة فى فترة من القرن الرابع والعشرين ق.م. ، على خطوة سمحة أخرى جريئة ، حين أصهر بشخصه إلى والى الصعيد وحاكم إقليم جرجا فى عهده ، فتزوج ابنته وأنجب منها ولى عهده مرنرع ، وربما تزوج أختها أيضاً (بعد وفاتها ؟) وأنجب منها ولداً آخر ولى العرش بعد أخيه باسم بيبى (الثانى) . وكانت هى المرة الأولى كذلك التى رفع فيها ملك مصرى إحدى زوجاته من غير الأميرات إلى مرتبة الزوجة الرئيسية واعترف بولدها وليا لعهده . وتكرر إجراء مماثل لهذا بعد عدة قرون حينما تزوج الملك أمنحوتب الثالث بفتاة من أسرة كبيرة من رعاياه وهى «تى» التى أسرت لبه بدلالها وذكائها وشخصيتها الفريدة . ثم أعلن ولده منها وليا لعهده . وبلغ من إعزازه لها أنه كان يأمر بتسجيل اسمها فى سياق الإعلام بمن تزوجهن بعدها من أميرات مصريات وأجنبيات ، كأنما

ليوحى بأن زواجه بهن هو من قبيل الزواج السياسى أساساً . (وقد اتخذنا أمثال هذه الظواهر الحسنة فى التقارب بين الملوك المصريين القدامى وبين كبار رعاياهم صمن شواهد نظريتنا الخاصة بأن مكانة الفراعنة لم تصل إلى حد الألوهية كما يظن أغلب المؤ رخين الحديثين ، وإنما وقفت فى معظم حالاتها عند حد القداسة . وثمة فارق بطبيعة الحال بين الألوهية وبين القداسة ، أو بين التأليه وبين التقديس) .

وكان طبيعياً مع هذا أن يشيع التسامح الاجتماعى فى الطبقات الأخرى من الشعب إذا وجد ما يدعو إليه ، بحيث قد تتزوج الفتاة بأحد أتباع ولى أمرها إذا راقه وراقها ، أو يتزوج الفتى ابنة خادمة أسرته إذا تحابا ، بموافقة الكبار . وفى إحدى مرات هذا التسامح أعتق حلاق رئيسى بقصر الملك تحوتمس الثالث (فى القرن ١٥ ق . م .) شابا رقيقاً عنده وزوجه ببنت أخته ، وأشركها مع زوجته وأخته (فى المعيشة أو فى الميراث) حتى يتجنب عريسها الحاجة عند اقترانه بها . وقد يقرن بهذا ما سبق ذكره عن سيدة عاقر تبنت أطفال جاريتها الثلاث من زوجها وزوجت كبراهم من شقيقها الأصغر . ولا يمنع هذا المثل أو ذاك من وجود حالات أخرى عكسية متشددة بطبيعة الحال

وندر زواج المصريات بغير المصريين حتى فى فترات الاحتلال الأجنبى القديمة . وعلى الرغم من كثرة زواج فراعنة الدولة الحديثة بخاصة (خلال القرون ١٦ - ١٢ ق . م) من أميرات الأسر الحاكمة فى الشام والعراق وآسيا الصغرى وكريت وغيرها تدعيماً للروابط الدبلوماسية معها ، ظلوا مستمسكين من ناحيتهم بسمو الجنس المصرى وعزوفين عن تزويج بناتهم بملوكها وأمرائها ، متعللين بمثل ما تعلل به الفرعون أمنحوتب الثالث لملك بابل المعاصر له (فى القرن ١٤ ق . م) من أنه لم يسبق أن أوفدت أميرة مصرية إلى أى شخص أجنبى . ولم يتنازل الملوك المصريون عن مثل هذه الفكرة إلا فى فترات ضعفهم السياسى فى أواخر العصور الفرعونية .

* * *

عقود الزواج

قل ما تبقى حتى الآن من عقود الزواج المصرية القديمة . واقتصر المعروف منها على ما دون فى عصور متأخرة الزمن نسبياً (منذ حوالى القرن العاشر ق . م . وما تلاه) . ويبدو منها أن ولى أمر العروس كان ينوب عنها فى إجراء عقد القران إلى ما قبل القرن السابع ق . م . ، ثم أبيح للعروس وللثيب بخاصة أن تحضر العقد بنفسها . وهو ما يعنى الاعتراف باكتمال شخصيتها القانونية ، وأن الزواج يعتبر من شأن طرفيه الفعليين أساساً ، وأن موافقتهما المتبادلة هى العنصر الرئيسى فيه .

وتجرى إجراءات عقد القران كالعادة بصيغ الإيجاب والقبول ، ويقول العريس لعروسه اتخذتك زوجة ، وقد تقول هى فى حالات خاصة واتخذتك زوجاً . ويتم النص على قيمة الصداق من الأوزان الفضية (التى قامت فى حينها مقام العملة) والأشياء العينية ، من قبل العريس ، والتزامه بإعالة العروس فى حضوره وغيابه ، والإقرار بحق أبنائه منها فى وراثته ، ثم تقرير مؤجل مناسب أو تعويض يدفعه إليها إذا انفصل عنها (إلا لذنب عظيم أتته أو إذا طلبت الطلاق بنفسها) ، مع حدوث التراضى على ذلك كله بشهادة الشهود من الأقارب والجيرة والأصدقاء قل عددهم أو كثر . وبهذا تكتمل أركان العقد . وقد ورد من شهود عقد متواضع فى مدينة طيبة ثلاثة . رئيس اسطبل ، وكاتب ، وكاهن ، بينما زاد عددهم فى عقد آخر إلى ستة عشر . وقد يمهر الموثق الرسمى العقد فى نهايته بتوقيعه .

ونمت بعض وثائق العصور المتأخرة عن أن تدوين العقد ، أو تسجيله بمعنى أصح وإقرار الالتزامات المالية بين الزوجين لم يكن من الحتم إتمامه قبل الزواج ، وإنما قد يتم بعد حدوثه . وذلك بما يعنى أن خطوات الطلب والقبول ثم وقوع التراضى بين الزوجين أو من يمثلها مشافهة كانت خطوات كافية فى حد ذاتها لإعلان شرعية القران كما سلف القول ، من وجهة النظر الاجتماعية .

وتشابهت صيغ العقود فى أركانها الرئيسية ، ولكنها لم تكن تلتزم دائما بصيغ ثابتة فيما يختص بتفاصيلها التى قد تتفاوت فيما بينها إلى حد ما باختلاف العصور وتفاوت ثقافة الكتبة والمستوى الاجتماعى للعروسين .

ولأمر ما ورد فى بعض عقود العصور المتأخرة فى طيبة ما ينم عن فترة ملاءمة مدتها سنة . بل واحتمال مرور سبع سنوات أحياناً تستقر بعدها الالتزامات المالية لكل من الطرفين قبل الآخر أو تعدل برضائهما .

وغالباً ما يمهر الزوج زوجته بما يسمى «شبن سحمة» أى «مهر الزوجة» ، أو «هبة البكر» صداقاً يتناسب مع مستواهما وعصرهما ، سواء كان معجلاً تتسلمه قبل الدخول بها ، أو يبقى مؤجلاً فى ذمة الزوج لتستوفيه حين ميسرة ، أو إذا وقع الطلاق بإرادة الزوج ، مضافاً إليه تعويض مسمى بينهما قد تتراوح قيمته بين نصف قيمة المهر وعشرة أمثاله .

وتدخل الزوجة بيت الزوجية بمنقولات مناسبة (تسمى «نكتون إرحمة» ، أو «نكتون سحمة» تمثل أمتعتها أو جهازها الذى تحتفظ بملكيته الخاصة ويحق لها استرداده إذا ما طلقها زوجها أو مات .

وقد تدون بهذه الأمتعة والمنقولات قائمة يصر أهل العروس على أن يوقع العريس عليها بدخولها إلى بيته وبملكية زوجته لها ، ويقيّم محتوياتها جملة وتفصيلاً بما تتضمنه من ثياب وباروكات الشعر والأساور والخواتم والخلاخيل والعلب المعدنية ، إلى جانب صندوق الملابس والمرايا والمزهريات والأوانى والمدق (الهون) والنحاس . . . إلخ ، كما يحدث فى القرى والأحياء الشعبية حتى الآن .

وزادت بعض عقود الوجه البحرى فى العصور المتأخرة فقرنت هذا بمال يقوم مقام الدوطة التى يخصصها أهل العروس لها باسم «حزن إرحمة» أى مال للتزوج أو فضة لعمل زوجة ، ولا تزال بعض المجتمعات الأجنبية المعاصرة تأخذ بها ، وبما تسهم به عمليا أو نظرياً فى مصلحة بيت الزوجية . وربما كان هذا أصلاً لما عرف اصطلاحاً فى وثائق هذه العصور المتأخرة والعصر البطلمى بخاصة باسم «سخ نسعنخ» أى «محرّر المعايشة» أو «عقد الإعاشة» وقد

تعددت الآراء فى تفسير مدلوله . ومن النظريات الأخيرة فيه أنه يقوم على أساس أن الزوجة بمالها من ذمة منفصلة كانت تعهد أحياناً إلى قرينها بمال خاص أو مقتنيات شخصية ليوظفها لمصلحة التكافل المعيشى بينهما ، على أن يضمن لها دخلاً عينيا أو معدنياً مجزيا من ريعها غالبا ما يساوى الثلث وقد يزيد إلى النصف . فيؤدى لها على سبيل المثال كحد أدنى مكيالاً معيناً من الغلال كل يوم ، ومكيالاً من الزيت فى كل شهر ، وراتباً شهرياً لنفقاتها الخاصة ، ثم راتباً سنوياً كبيراً لتكاليف زينتها غير العادية . وقد يضيف ما يؤكد به لزوجته أنه يعلم جيداً أن نفقات زينة العام تخالف راتبها الشهرى المعلوم . وهو ما يتفق مع ما أسلفناه عن شغف المصريات المقتدرات بملابسهن وحليهن ، وصنوف الدهون والعطور ، والمرايا والأمشاط والمكاحل والمراوح ، فضلاً على الشعور المستعارة حين الخروج وحضور المحافل . وأخيراً يقسم الزوج بأسماء آلهته وملك عصره على التزامه بعهوده . بل وقد يتعهد بوضع أملاكه الحاضرة والمستقبلة ضماناً للوفاء بها ، ويشهد على ذلك نفر من الشهود قد يتضمنون واحداً أو أكثر من أهله ليكون كفيلاً له وضماناً لأداء التزاماته . وكان للزوجة أن تسترد رأس مالها حين الاختصام النهائى والطلاق .

* * *

ومن جانب آخر قد يخصص الزوج لزوجته جزءا من أملاكه العقارية على سبيل الهبة فى حياته ، ليضمن انتقاله إليها بعد وفاته ، بناء على إعزازه لها ، إن لم يكن استجابة لشديد إلحاحها عليه . وهكذا كتب إدو أحد كبراء عصر الأسرة السادسة يقول «إن الضيعة التى وهبتها لزوجتى المحبوبة دسنك تعتبر ملكاً خاصاً لها ، وذلك لفرط حبى لها» . بينما كتبت هى نصاً يحتمل منه أنها اعتبرت هذه الهبة أشبه بمؤخر صداق وتوعدت من يغتصبها منها بإقامة الدعوى ضده لدى الإله العظيم .

وهكذا أيضاً نقل واحو أحد كهنة معبد سوبد فى فترة من عصر الأسرة الثانية عشرة إلى ذمة زوجته شفتو المعروفة باسم تتى أو تتا ممتلكات ريفية ومدنية سبق أن تنازل له عنها أخوه عنخ رن ، لتكون تحت مطلق تصرفها وأن تعيد

توريثها لمن تشاء من الأبناء الذين تنجبهم منه . وخص بالذكر من أملاكه الدار التى بناها أخوه من أجله لكى تقيم فيها ويمتنع على أى إنسان أن يتعرض لها بشأنها ليخرجها منها . وساق التحذير نفسه بالنسبة للمقبرة التى خصصها لنفسه ولزوجته . وربما كان حق الزوجة فيهما حق انتفاع دائم أكثر منه حق تملك خالص .

وقد يذهب الأمر بالزوج (العجوز أو العقيم) المدله بحب زوجته الشابة أن يعلن تبنيه لها ، صوريا بطبيعة الحال ، ليؤمن انتقال أملاكه إليها بعد وفاته باعتبارها وريثته الرئيسية .

وكما أغدق بعض الأزواج على زوجاتهم ثروات يعتد بها ، أتاح اقتران بعض الشبان والرجال بالأميرات وبنات الوزراء وولاة الأقاليم فرصاً كثيرة لبلوغ عليا المناصب فى عاصمة الدولة وفى حكم أقاليمها . وعندما زادت محاباة هؤلاء المحظوظين من الأزواج فى أواخر الدولة القديمة قال الحكيم إبوور «تأمل ، إن من تزوج نبيلة حماه أبوها ، ومن لم يجد مثلها قد يجد من يقتله» .

وجاز للزوجة المصرية أن تشكو زوجها إذا آذاها أذى مبرحاً ، أو يشكوه ولى أمرها نيابة عنها . وإذا ما استرضاها الزوج بعد ذلك قد يقسم على التزامه بحسن معاملتها وأنه إذا عاود الإضرار بها استحق أن يجلد كذا جلدة (وهو التزام شكلى لم يكن يطبق فعلاً) ، وأن يحرم من كل ما يحصل عليه معها من إيراد مشترك .

***

لم تتناول الأقاصيص المصرية القديمة تصرفات الحموات وزوجات الأب صراحة . ولكن تخلفت قرائن متقطعة شهدت بتسامح الأزواج والأولاد أكثر مما شهدت بتسامح الحموات وزوجات الأب . فقد سمح بعض الأزواج الطيبين بتصوير حميهم وحمواتهم فى ذات مقابرهم إرضاء لزوجاتهم . وتقبل الفرعون تحوتمس الثانى زوج حاتشبسوت أن تتلقب حماته بلقب «أم الملك» أى أمه أو «الملكة الوالدة» ، على الرغم من أنها كانت ضرة لأمه . ولما وافاه الأجل

ورث العرش عنه ولده تحوتمس الثالث ، وكان ابن ضرة لامرأة أبيه الرئيسية الملكة حاتشبسوت ، ولم تشأ هذه الأخيرة أن ترد تسامح أبيه بالحسنى ، بل راوغته واستغلت صغر سنه ، وفرضت نفسها وصية عليه وشريكة له فى عرش أبيه تسع سنين ، وزوجته ابنتها ، ثم أقصته عن الحكم الفعلى وانفردت بالعرش دونه ثلاثة عشر عاماً . ولما انقضى أجلها وآل العرش خالصاً إلى غريمها بعد أن شب عن طوقه وكثر أنصاره ، لم يذكر حماته فى حولياته بسوء ، واستمر يخص ابنتها بمركز الصدارة فى قصره ، ولكنه جازى حاتشبسوت عن عتوها بصورة أخرى ، فأوحى إلى أتباعه ، أو ارتضى من أتباعه ، أن يطمسوا أسماءها وصورها ويمحوها من كل آثارها المصورة والمكتوبة ، وأن يهشموا تماثيلها أينما وجدوها ، عساه ينساها وينسى الناس ذكراها .

وروت قصة عرفت باسم قصة الأمير الموعود أن أميرها الشاب استمال إليه مساعدى أمير منطقة نهارينا على حدود الشام والعراق بأن قال لهم إنه لم يفارق وطنه سائحاً فى الأرض إلا بعد أن لاقى عنتا من تصرفات زوجة أبيه التى اقترن بها بعد وفاة أمه .

وروت قصة من العصور المتأخرة أن أنثى من علية القوم اشترطت على أرمل تقدم لها أن يحرم أولاده السابقين من ميراثه .

وأحاطت بالفرعون آخناتون المشهور بدعوة الوحدانية الدينية سيدتان قويتا المراس ، أمه تى ، وزوجته نفرتيتى . وكانت تى ذات بأس ونفوذ منذ حياة أبيه كما سلف القول عنها . وكانت تتردد على قصر ولدها فى العمارنة من حين لآخر ، فيكرم وفادتها ، ويؤدب لها المحافل هى وزوجته نفرتيتى . ويبدو أن تى رأت أن مغالاة ولدها فى دعوة التوحيد جرت عليه خصومات عنيفة وألبت عليه كبار كهنة مدينة طيبة ذوى النفوذ القديم . فأخذت تدعوه إلى أن يهادنهم ويتخلى عن بعض تشدده فى دعوته ، لولا أن نفرتيتى لم تكن دون حماتها تى بأسا وسيطرة ، فخاصمتها فى ولدها ، واستمرت تحرضه على خلاف ما دعته إليه والدته ، فتشتتت نفسه وتشتت جهده بين طاعة أمه ، والإخلاص لدعوته ، وإرضاء زوجته .

وفى مقابل هذه الحالات الفردية ، نمت عن صور أخرى من التحيز للأهل والأقارب من جانب الرجل ، عبارات مرسلة فردية أخرى ساقها عنخ شا شنقى وقال فيها «لا تفتح قلبك لزوجتك أو لجاريتك ، وافتحه لأمك فهى الأنثى الوفية» . وقال «لا تدع ولدك يتزوج امرأة من قرية أخرى وإلا انتزعوه منك» .

تبعات الطلاق :

يحتمل من عقود فردية أن طلب الطلاق فى المجتمع المصرى القديم كان حقاً مكفولاً للزوجين ، وإن ظل بيد الزوج فى الأعم الأغلب . وقد تشترط الزوجة أن يتعهد الزوج على نفسه فى عقد الزواج بأن يرد عليها ضعف بائنتها إذا اقترن عليها بزوجة أخرى . وأن يحرر لها سنداً بابتعاده عن العقار (؟) لصالحها . وفى الوقت ذاته قد تحرر الزوجة بعد إجراء العقد سنداً بعلمها أنها أصبحت زوجة لقرينها ، وأنها إذا طلبت الانفصال عنه ردت له نصف قيمة الصداق المدفوع إليها وتنازلت عن حقها فى عائد أملاكه .

وإذا أوقع الزوج الطلاق بإرادته أدى لمطلقته المؤجل المنصوص عليه فى عقد القران أو التعويض الذى قد تتجاوز قيمته فى بعض الحالات قيمة الصداق نفسه . وتستوفى المطلقة معه ما يكون قد تخلف لها من حر مهرها فى ذمة زوجها . كما تسترد مقتنياتها الشخصية كاملة أو ما يعوضها عنها . وقد يضاف إلى هذا نحو ثلث ممتلكات الزوج العقارية لصالح أبنائه القصر وتربيتهم . وقد يكتفى الرجل بالتطليق الشفهى كأن يقول لزوجته «لقد هجرتك كزوجة ، ولك أن تتخذى لنفسك زواجاً آخر» . أو يحرر لها وثيقة طلاق تؤكد خلوها من موانع الزواج .

وفى عصور حكم البطالمة والرومان تأثرت عقود الزواج المحررة باللغة الإغريقية فى مصر ببعض خصائص العقود القديمة . ومن هذه الخصائص غلبة الطابع المدنى عليها . وحق العروس فى تمثيل نفسها عند عقد القران ، وحقها

فى طلب الطلاق . وتقييد حق الزوج فى التصرف فى جهاز عرس زوجته وبائنتها ورأس مال الإعاشة ، والتعهد أمامها بحقها فى استردادها بضمان أملاكه أو ضمان أحد أقربائه ــ وعلى الجملة تعويض المطلقة بإرادة زوجها بما نص عليه العقد واتفق عليه الطرفان سلفاً . وقد بلغ فى بعض حالاته الاستثنائية مثلى الصداق ، أو خمسة أمثاله ، أو سبعة أمثاله . واستمرت أغلب هذه التقاليد والاجراءات ذات الصبغة المدنية والمالية مرعية بصور متقطعة خلال أوائل العصور المسيحية فى مصر .

* * *

الفصل الخامس

الحمل والولادة ، والرضاعة والعلاج

إشباعاً لغريزة الأنثى وعاطفة الأمومة الطبيعية لدى الزوجات ، واستجابة لما يلي الاستشهاد به من شدة حرص الأزواج المصريين على الإنجاب لسعادة الدنيا والآخرة ، ألحّت نساء مصر القديمة فى مغالبة العقم إلحاحا كبيرا واستعن فى سبيل نجاح الحمل بعلم الأطباء ، وتعاويذ الرقاة والسحرة كما توسلن إليه بفيض المعبودات ، وبركات الأولياء وصالح الموتى .

وتخلف من شواهد اهتمام الطب المصرى بالإناث ، مخطوط خصص لتشخيص أمراض النساء ، ومخطوطان آخران تضمنا ثمانى وسائل للتمييز بين الأنثى المخصبة والأنثى العقيم . وشاءت المصادفات أن تتصف هذه الوسائل الباقية بسذاجة واضحة من وجهة النظر الحديثة على أقل تقدير ، فأوصت إحداها بأن تخلط الزوجة قطعة شمام بلبن والدة ولدت طفلاً ذكراً ، ثم تأكل الخليط ، فإن قاءته استبشرت بقرب حملها ، وإن استقر فى جوفها وشعرت بانتفاخ بطنها أيقنت من عقمها .

والغريب أنه على الرغم من وضوح السذاجة فى هذه الـوصفة ، تـردد صداها وصدى أمثالها طوال العصـور القديمـة ، فى مصر وغيـرها ، بحيث أوصى الحكيم الإغريقى أبقراط (هيبـوكراتيس) بـأن تخلط الأنثى تينا بلبن والدة وضعت مولوداً ذكراً ، ثم تأكله . فإن قاءته استبشرت بقرب حملها ، وإن احتفظت به فى جوفها أيقنت باستحالة حملها .

وأوصت وصفة مصرية أخرى متـأخرة ، بـأن تبول الأنثى التى تشعـر بأعراض الحمل على نبات معين ، فإن أزهر صدق حملها ، وإن ذبل كان حملها كاذبا .

وتردد صدى هذه الوصفة هى الأخرى ، فى أغلب العصور القديمة ، كما أخذت العصور الوسطى الأوروبية بمثلها ، بحيث أوصى طبيب انجليزى من القرن التاسع تلميذه بـوصفة «لمعـرفة المخصب من العقيم ، رجـلا كان أو امرأة» ، وقال له «ضع خمس قمحات فى حفرة صغيرة ، وسبع حبات فول فى حفرة أخرى . واجعل من استشارك يبول فى الحفرتين ولاحظ الحبوب بعد أسبوع ، فإن نبتت كان صاحبها مخصبا ، وإن ضمرت كان عقيماً» .

وتخلف من أدوات الرقاة والسحرة المصريين صحن كبير نقش باطنه وما حوله حافته بصور الضفادع كثيرة النسل ، وكان الراقى يملؤه فيما يبدو بسائل ما ، ثم يتلو عليه رقاه ويسقيه لزائراته من النساء (وكـان مثله كثيرا بـطبيعة الحال) .

واستعانت النساء بتمائم خاصة لنجاح الحمل . كان بعضها يشكل على هيئة إناث الحيوانات والزواحف التى تتميز بكثـرة الإنجاب مثـل الضفادع والقطط . ويشكل بعضها على هيئة إناث الحيوان التى تتصف بضخامة البطن والثديين مثل أفراس النهر .

والتمس نفر من الأزواج والزوجات عون الأولياء وكرام الموتى على تحقيق الخلف . ومن هذا القبيل أن وضعت مصرية تمثالاً صغيراً فى قبر أبيها كتب عليه «أرجو أن تهب ابنتك سح طفلاً» . وأسقط شاب رسالة فى قبر أبيه توسل

إليه فيها أن يساعد امرأته على نجاح الحمل . وتصادف أن نجح الدعاء ، ووضعت الزوجة طفلاً جميلاً ولكنه سقيم ، فأسقط الشاب رسالة أخرى لأبيه قال له فيها « . . . أرجو طفلاً ذكراً ثانياً سليماً . . . » . ومن وجه آخر قال أحد الأمثال العامية فى مصر القديمة «من استحى من نكاح زوجته لن يولد له غلام» . وهو ما يشبه المثل العامى الحالى «اللى ينكسف من بنت عمه ما يجيبش منها غلام» .

ولم يكن مبعث شغف الآباء والأمهات المصريين بالأطفال هو مجرد الرغبة فى إشباع غرائز الأبوة والأمومة وحدها ، وإنما كانت وراءه كذلك دوافع اجتماعية ودينية أخرى متعددة .

فلقد نشأ المجتمع المصرى القديم نشأة زراعية فى جوهره كما هو معروف . والكيان الاقتصادى للمجتمعات الزراعية يتأثر عادة بوفرة الأيدى العاملة أو قلتها على الأرض . وما يصدق من ذلك على اقتصاديات المجتمع الكبير يصدق كذلك على دخل كل أسرة زراعية فيه ، سواء عملت فى أرضها أم استؤجرت للعمل فى أرض غيرها . فكلما تكاثر أفرادها كلما تهيأت الفرص لزيادة دخلها .

وشجعت ظروف البيئة المصرية أهلها على طلب العيال وجنبت فقراءهم خشية العوز المدقع أو الإملاق التام . ومن وسائلها التى أجراها الرحمن فيها ولايزال، تعاقب وانتظام فيضانات النيل ووفرتها فى معظم الأحوال، ويسر الانتفاع بها وسهولة تصريفها إلى حد معقول، وخصوبة التربة وتجددها شبه الدائم ، وسخاؤ ها بالتالى فى ضمان وفرة النباتات والمزروعات والحاصلات ورخص أسعارها إلا فى سنوات القحط والغلاء والتضخم . وأوحى ذلك كله إلى عامة الناس بشىء من الطمأنينة إلى معيشة مأمونة العواقب إلى حد مقبول ، كما هون على فقرائهم مغبة تحمل نفقات الأسرة وتكاليف العيال .

واسترعت هذه الظواهر نظر المؤ رخ ديودور الصقلى حين زار مصر فى القرن الميلادى الأول ، فكتب يقول «يربى (عوام) المصريين أولادهم فى يسر واقتصاد بالغين ، فيطعمونهم عصيدة يطبخونها من مواد رخيصة وافرة ، ومن

سيقان البردى بعد شيها على النار ، وجذور نباتات مائية يستسيغون طعمها نيئة ومطبوخة ومشواة» .

واطمأن غالبية المصريين إلى كرم معبوداتهم كما اطمأنوا على جود بيئتهم ، وسرت بينهم روح من الإيمان بإله خالق رحيم ، وصفه أدباؤهم بأنه يدبر قدرة النسل للنساء ، ويخلق من النطفة بشراً ، ويهب الحيوية للجنين فى بطن أمه ، ويتعهده فى الرحم ، وإذا ولد أنطقه ونماه . كما وصفوه بأنه إله يعنى بأفراخ الحيوان كما يعنى بأجنة البشر . وهو من يوكل إليه الأمر كله .

وسبح بعضهم هذا الخالق بقوله :

«خلقت العشب لتحيى به البهم ، وخلقت شجر الحياة للبشر ،
«تهب الحياة أسماك الماء ، والطير فى كبد السماء ،
«ترسل الأنفاس للفرخ فى الدحية وتحيى الدودة فى التربة .
«قدرت ما يحيى النمل والزواحف والهوام ،
«ورزقت الجرذان فى الجحور ، ورعيت الطير على أغصان الشجر» .

وتحدث نص قديم آخر عن فضل الإله الذى يحفظ الجنين فى بطن أمه ويهدئه فلا يبكى ، والذى يمد الفرخ بالهواء فى بيضته ليبقيه حيا ، ويهبه القوة ليثقب بيضته ويخرج منها يمشى على رجليه ويصوى بكل قواه .

وتعدى إيحاء الدين بطلب العيال أمور الدنيا إلى أمور الآخرة ، فربطت العقائد الدينية القديمة بين سعادة المرء فى أخراه وبين ما يمكن أن يؤديه له ولده من طقوس الجنازة حين وفاته ، وما يتعهده به من شعائر القربان بعد دفنه ، وما يتكفل به لإحياء اسمه وإبقاء ذكراه .

وتحدث ورد من متون الأهرام على لسان المعبود حور (حورس) كولد بار يناجى أباه ، فقال : «انهض أبى حتى ترى هذا ، انهض أبى حتى تسمع هذا الذى يفعله ولدك من أجلك» .

وتحدث ورد آخر من متون التوابيت على لسان والد نعم بسعادة الدارين

بفضل ولده ، فقال : «أصبح مقعدى فى حوزتى ، ولم يكن أبى هو الذى وهبه لى ، وليست أمى هى التى وهبته لى ، ولكنه وريثى هذا الذى أعطانى إياه» .

وترتب على أمثال هذه التصورات أن اعتبر المصريون ثراء الدنيـا قليل الغناء إذا أعوزته نعمة الولد ، ولم يتصوروا سبيلاً لسعادة من حرم من نعمة النسل غير التبنى ، يستفيد المرء منه لنفسه وقد يفيد به مجتمعه . وعبرت عن ذلك رسالة قال فيها صاحبها لصديقه الثرى العقيم : «إنك وإن تك موفور الثراء إلا أنك لم تعمل على أن تهب شيئاً لأحد . وأولى بمن لم يكن له ولد أن يتخير لنفسه يتيماً يربيه ، فإذا نما عنده صب الماء على يديه ، وأصبح كأنه ولده البكر من صلبه» .

وشارك ملوك مصر شعبها فى تمنى كثرة الأولاد لأنفسهم وللوطن كله . وانعكس صدى هذه الرغبة على نصوص زعموا فيها أن أربابهم وعدوهم بوفرة الخلف ومنـوهم بعمران البـلاد دوماً . ومن هـذا القبيـل أن قـالت الملكـة حاتشبسوت إن أربابها قالوا لها : «سيعمر الصعيد وتعمر الدلتا بالذرارى ، ويزداد أولادك كلما زادت بذور الخير التى تغرسينها فى نفوس رعيتك» .

وإلى هذا الحد رجـا المصريـون القدامى الأولاد لـدنياهم وأُخـراهم ، وساعدتهم طبيعة أرضهم وأوضاعها الاجتماعية والدينية على أن يستزيدوا من العيال دون أن يتوقع فقراؤ هم ، ناهيك عن أغنيائهم ، عنتا كبيراً أو إملاقا

ولكن على الرغم من ذلك كله ــ لم يكن هناك ما يمنع الأم من أن تتجنب الحمل إذا ضعفت عنه ، أو تخوفت العجز معه عن تربية صغارها إذا تعاقب الواحد منهم تلو الآخر . ولهذا اهتم بعض الأطباء بإيجاد وسائل معينة تؤدى إلى «منع الحمل عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام» ، على حد قول نص مصرى قديم .

ولا بأس فى أن نشير هنا إلى مشكلة تاريخية تتصل بنسبة المواليد فى مصر القديمة ، وهى أن رأيا شائعا قد أسـرف فى تخيل كثـرة أبناء الملك رمسيس الثانى ، فنسب إليه ٥٩ بنتاً ، و٧٩ ولداً أو مائة ولد . ولكن إذا كان هذا الملك

قد بزّ بقية الملوك المصريين فعلا فى كثرة زوجاته ، وعمر نحو تسعين عاماً بحيث توفى له ١٢ ولداً فى حياته ، إلا أننا نرى أن تقدير عدد أبنائه بهذا الكم الضخم لا يخلو من شك كبير . ولا نستبعد أن عدداً ممن اعتبرهم بعض المؤرخين أبناءه كانوا فى واقع الأمر من أفراد بيته المالك وفروعه الذين انتسبوا إليه تشرفاً ، وصوروا بين أبنائه . وقد خدعهم عن حقيقة وضعهم أن اللقب المصرى «سانيسو» بمدلوله الحرفى عن «ابن الملك» ، واللقب «سات نيسو» بمدلوله الحرفى كذلك عن «بنت الملك» ، لم يختلف أحدهما عن لقب الإمارة العادى لبقية أفراد الأسرة المالكة الذين لم يعد يزيد عنهم فى بقية ألقابه سوى ولى العهد الفعلى وحده . وذلك مما يعنى أن الأمور لا ينبغى أن تؤخذ بظواهرها وحدها .

ومع ما قدره المصريون القدامى من فضل ربهم الذى يصون الجنين فى بطن أمه ، ويحفظ تنفسه ، وينزل السكينة عليه فلا يئن ولا يبكى ، فطنوا فى الوقت ذاته إلى أن غذاء الأم الحامل هو السبب المباشر لنمو الجنين وتغذيته .

وسمع المؤرخ ديودور الصقلى هذا الرأى منهم ، فأعجب به ، وكتب يقول إن المصريين وإن اعتقدوا أن الأب هو المسئول فعلاً عن الإنجاب ، إلا أنهم يعتقدون فى الوقت ذاته أن الأم هى الوسيلة إلى تزويد جنينها بالغذاء والجنة (أو الحفظ والحماية) . ولا يستبعد أن يكون اهتمام السيدات حتى الآن بوحم الحامل ، وتلبية ما تشتهيه فى فترة حملها خشية أن يتأثر تكوين المولود بحرمانها منه ، أثرا من آثار التفكير القديم .

وصورت مخطوطات الطب والرقى المصرية القديمة بعض جوانب العناية بالحوامل ، كما صورت شغف أهلها بتخمين نوع الجنين ذكراً كان أو أنثى . وكان من وسائل هذا التخمين أن تبول الحامل على حفنتين من الشعير والحنطة ، كل حفنة فى خرقة على حدة . فإذا نما الشعير أكثر من نمو الحنطة كان الجنين ذكراً ، وإذا نمت الحنطة أكثر من نبات الشعير كان الجنين أنثى . وربما ظن أصحاب هذه الوصفة أن بول الحامل يتضمن بعض الإفرازات التى تخرج

من الجنين أو تحيط به ، وتوهموا أن غلبة بعض هذه الإفرازات على بعض تنم عن جنس طفلها . ولعلهم لاحظوا بالتجربة أو بوحى المصادفة أن حبوب الشعير (وهو ذكر) تنمو بإفرازات الذكر أكثر مما تنمو بإفرازات الأنثى ، وأن العكس بالعكس صحيح بالنسبة إلى حبوب الحنطة (وهى مؤنثة) .

ورمزت بعض القصص والأساطير المصرية إلى ما توهمته الأمهات الشغوفات بالإنجاب قبل الحمل وبعده . ومن أشهرها أسطورة سجلها أتباع الملكة حاتشبسوت عن ظروف مولدها ، وخلطوا فيها بين الواقع وبين تهاريف النساء وأخيلة الكهان وحيل الساسة . وخلدوا صورها وأخبارها فى لوحات ومناظر ملونة على جدران معبدها بمنطقة الدير البحرى فى غرب الأقصر . (وشابهتها فيما بعد فى عناصرها الرئيسية لوحات ومناظر ميلاد الملك أمنحوتب الثالث فى معبد الأقصر) .

ونرى من ناحيتنا تفسير الجوانب المنطقية والرمزية من هذه المناظر والأخبار على النحو التالى :

كانت حاتشبسوت ابنة ملكة من دم فرعونى خالص وهى الملكة أحمس . وورثت أحمس هذه شرعية اعتلاء عرش مصر عن أبيها الملك أمنحوتب الأول . ولكنها اقترنت فى شبابها بأخ غير شقيق أو أمير شاب تولى حكم مصر بعد وفاة أبيها باسم تحوتمس (الأول) . وثكلت فى شبابها عدة أطفال يحتمل أنهم كانوا ولدين وابنة . ويفهم من الأسطورة أن هذه الحال أهمت طرفين : المعبود آمون رب الدولة وحامى عرشها ، والملكة أحمس نفسها ، لاسيما بعد أن وجدت زوجها قد بنى بغيرها ، وخشيت أن يورث عرشه لأحد أبناء ضرائرها . فتوجهت بدعائها ورجائها إلى ربها آمون وتمنت أن يهبها مولوداً يصون العرش لفرعها الملكى الأصيل . وتلقف كبار كهنة آمون دعوتها وادعوا أنهم وصلوا بينها وبين ربها .

وبدأت الاستجابة ، فيما ادعت الأسطورة ، بتصوير مشاعر آمون . فصورته يدبر أمره لإيجاد وريث شرعى يحكم مصر باسمه ويعوضها عمن

سلف من كبار ملوكها ــ وجعلته ينصرف برغبته إلى شخص الملكة أحمس بعد أن تشاور فى أمرها مع صفيه ورسوله أو مبعوثه المعبود تحوتى رب الحكمة ، وسمع منه الثناء المستفيض عليها .

ولما حزم آمون أمره ، ادعى الكهان أنه أرسل بشيراً بإذنه إلى أحمس ، وصوروا هذا البشير على هيئة رسوله أو مبعوثه تحوتى نفسه . وضمنوا بشراه أن آمون أسر إلى بقية المعبودات أنه سيهب أحمس مولوداً من صلبه يعتلى عرش البلاد . وأضافت الأسطورة أن الإله قضى بأن يجعل مولوده المرتقب أنثى .

واستفسرت الملكة البشير عن آية أو علامة ، فأوحى إليها أن تتزيى بزى العبودة موت زوجة آمون المقدسة . وأسر إليها أن آمون سيزورها بنفسه وأنه سيتلبس هيئة زوجها تحوتمس الأول .

وحين اقتربت الساعة واجتمع الزوج والزوجة ، أو الرب والملكة ، هومت عليهما هالة قدسية مباركة ، وتسامرا طويلاً ، وباح كل منهما إلى الآخر بمكنون نفسه . وتأدبت الأسطورة فصورت الزوج المقدس يلامس الملكة باليد والرمز دون ملامسة الجنس والشهوة ، كما صورت عدداً من الربات يحضرن اجتماعهما دلالة على رمزية الاجتماع وطهارته .

وتحققت المعجزة ، وحملت الملكة . وأوحى آمون إلى المعبود خنوم المتكفل بتشكيل البشر أن يصور بدن الجنين من صلصال ، ففعل . وأسرع كبار الكهان إلى أحمس على هيئة الأرباب وبشروها بصدق الحمل . فلما حان أوان الوضع زارها المعبودان خنوم مشكل البشر ، وحقة المولدة ، وأخذا بيديها إلى سرير ضخم فخم ، ووعداها العافية وسلامة العقبى ، فاستسلمت أحمس لهما فى استبشار عريض عبر مصور الأسطورة عنه بابتسامة حلوة مستبشرة سجلها على شفتيها الرقيقتين .

وتجاوزت الأسطورة عن تصوير الوضع ذاته ، وصورت ما أعقبه من بركات وحبور . وروت أن المعبود آمون تخير للمولودة اسم حاتشبسوت بمعنى «ذروة النبيلات» ، بعد حوار شائق بينه وبين أمها . واعتبرها ابنته من صلبه

ووريثة لعرشه . وادعت أن أرباب الحماية والسرور أفاضوا بركـاتهم عليها وفرحوا بها . وأن فريقاً من كرائم الربات الحتحورات تعهدن بإرضاعها ، وأن عدداً من أرواح أسلاف الفراعنة الأوائـل شاركـوا فى التهليل لمـولدهـا هى وكاواتها أى أنفسها الفاعلة التى شكلت على صورتها .

وانتهت الأسطورة إلى خاتمة المطاف من روايتها ، فأكدت أن الفرعون تحوتمس الأول الأب البشرى للمـولودة ، تلقى إرادة ربـه آمون عن رضـا وقناعة ، وأعلنها على الناس ، فنادى بمولودته حاتشبسوت شريكة له فى الحكم وتصريف الأمور ، وعهد إليها بالعرش من بعده .

ووصفت ملابسات حالة الوضع أسطورة قديمة أخرى ، صورت ميلاد ثلاثة توائم لامرأة مباركة تسمى «رود جدة» وكاهن من أولياء رع رب الشمس يسمى «وسر رع» ، من أواخر القرن ٢٦ ق . م . وروت الأسطورة أن رود جدة حين أتاها المخاض لم يكن عندها من يساعدها عليه . وأراد الاله رع أن يعينها على الوضع فبعث إليها بأربع معبودات مباركات على هيئة البشر : قابلة وهى الربة إيسة (إيزيس) ، وثلاث مساعدات لها وهن نبت حت (نفتيس) وحقة ومسخنة . فضلاً عن تابع عجوز لعله حمل كرسى الداية أو حاجيات التوليد ، وهو المعبود خنوم . واسترسلت الأسطورة فى وصف ساعة الوضع وما ظهر خلالها من الكرامات . فذكرت أن القوابل انفردن بالحامل فى غرفتها وأوصدن بابها عليهن وعليها . وجلست إيسة أمامها تقوم بعملية التوليد ، بينما جثت نبت حت (نفتيس) خلفها لتشد عليها بذراعها وتكون سنداً لها حين المخاض وعوناً على دفع المواليد . وجلست «حقة» تتعجل الوضع كما روت الأسطورة أو تحمى الطلق كما تقول نسوة اليوم . واكتفت الـرابعة مسخنـة بالتشجيع والتمتمة شأن العجائز المجربات المباركات . وكلما ولدت الوالدة توأما بشرته مسخنة بما قدر له من حظ سعيد وقالت «ملك سوف يتبوأ الحكم فى هذه الأرض كلها» .

وغسلت الربات المواليد الثلاثة وقطعن لكل منهم حبله السرى . وأرقدنه فوق قالب طوب يقوم مقام مهد متواضع صغير غطينه بغطاء كتانى بسيط .

وأراد تابعهن العجوز خنوم أن يؤدى دوراً يشكر عليه ، فطمأن الوالدة على سلامة أبنائها الثلاثة ، وزودهم بالعافية ، كما روت الأسطورة ، ربما بدعائه المبرور أو بمسح أبدانهم الغضة بباطن كفه . وخرجت الربات بعد هذا إلى الزوج فألفينه يرتدى ثوبه مقلوباً من فرط جزعه على زوجته وحملها ، أو إشارة إلى حالة الوضع فى داره ولفتا للأنظار إلى طلب النجدة . ولما بشرنه بولادة البنين انزاح القلق عنه ووهبهن ما كان يدخره فى داره من الشعير ، ولكنهن اعتذرن عن حمله وتركنه فى لباقة . وبعد أربعة عشر يوماً تطهرت النفساء ، واستعدت لمأدبة متواضعة أرادت أن تولمها للمهنئين وتشكر بها ربها على ما وهبها من سلامة وبنين (ربما فى مقابل حفل السبوع المعاصر) . وحينما شب الأبناء أصبحوا أوائل ملوك الأسرة الخامسة ، واعتبرت أسطورة مولدهم دعاية لقداسة حكمهم .

* * *

وفى عالم الواقع ابتدع الأطباء والمطببون المصريون وسائل عدة لتيسير الولادات العسرة ، بحيث تضمن مخطوط طبى من القرن السادس عشر ق . م . ، إحدى عشرة وسيلة «لاستخلاص الوليد من بطن السيدة» ، على حد قوله . ونافس الكهان والرقاة الأطباء والقوابل فى معالجة ما كانوا يندبون إليه من الولادات العسرة وكان بعضهم يرتدون ملابس معينة ، ويمسكون عصيا خشبية ذات أشكال خاصة يلوحون بها حين يتلون رقاهم لإقصاء من يتوهمونه أو تخشاه الوالدة من أشباح وشياطين قد يتجمعون حولها ويعملون على تعويق الوضع أو إفساده .

وعلى أية حال فلابد أن عمق تدين المصريين القدماء كان يدعوهم إلى أن يذكروا معبوداتهم فى ظروف الوضع وحين نجاحه . وقد قيل عن المعبود آمون إنه «من تلد الحامل بأمان حين تنطق باسمه الأعظم» .

وتفاوتت وسائل رعاية الأم المصرية لوليدها بتفاوت ثقافة الوسط الذى تنتمى إليه . وصورت المناظر والتماثيل القديمة بعض الأوضاع التى كانت الأمهات يتخذنها حين الرضاعة . فالفقيرات منهن كن يجلسن بأبنائهن على

الأرض أو يفترشن الحصير ، وأكثر أوضاعهن شيوعاً حين الرضاعة ، هو أن تفترش الأم ساقيها من تحتها ، وتضع رضيعها فوق فخذها وتسلمه ثديها . وأقل أوضاعهن شيوعاً هو أن تجلس الأم وهى تقيم ساقاً وتثنى الأخرى ، ثم تسند رضيعها على ساقها المنتصبة . أما ذوات النعمة من الأمهات فصورتهن بعض المناظر يتبوأن المقاعد بأطفالهن فى استرخاء مريح ، وينعمن مع الإرضاع بأطايب الغذاء ورعاية الإماء والخدم .

واتخذت المصريات وسائل عدة لتيسير الرضاعة ، فكانت إحداهن إذا استشعرت جفاف لبنها استعانت بوسائل التطبيب التى يعرفها عصرها ، أو تعوذت بالرقى والتمائم . وتضمنت بردية مصرية قديمة وسيلتين لإدرار لبن المرضعة ، أوصت إحداهما بأن تحرق المرضعة عظام سمك معين فى الزيت وتسحقها ، ثم تدلك بها سلسلة ظهرها . وأشارت الثانية بأن تستعين المرضع بعفن الخبز (وهو من مكونات البنسلين الحالى) ، فتحرق رغيفاً عفناً ، وتخلطه بنبات «خساو» ثم تأكل خليطهما وهى جالسة تفترش ساقيها من تحتها .

أما النساء اللائى اعتقدن فى نفع التمائم ، فكن يشترين من أعياد المعبودات وموالد الأولياء تمائم رقيقة من الخزف والمعدن مشكلة على هيئة الثدى ، أو على هيئة المعبودة إيسة (إيزيس) وهى ترضع طفلها الوحيد ، أو هيئة المعبودة حتحور فى شكل البقرة ، أو المعبودة تاورة فى شكل فرسة النهر ، ويعلقنها على الصدر أو على الثدى .

واستخدمت القصور الملكية المراضع منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد على أقل تقدير . وخصصت لكل أمير مولود فيها مرضعة أو أكثر من مرضعة ، وحاضنة أو أكثر من حاضنة . وكانت المرضعة تكلف أحياناً بدور الحاضنة والمربية . وروت قصة طفولة موسى عليه السلام فى مصر شيئاً من هذا الوضع .

وحظيت أغلب مراضع أولياء العهود بجزاء واف ومكانة اجتماعية طيبة . فخصصت لبعضهن ضياع مناسبة ، وتمتعت بعضهن بحقوق الأمهات

على من تولين إرضاعه من صغار الملوك أو أولياء العهود . وجاز لأبنائهن أن يتلقبوا بلقب الأخوة فى الرضاعة للفرعون الحاكم ، كما جاز لأزواجهن أن يعتبروا أنفسهم فى منزلة الآباء (الروحيين) للفراعنة . وكان يفرد لهن أحياناً جناح خاص من أجنحة القصر الفرعونى يسمى جناح الرضاعة أو دار المراضع . وجرى الأثرياء المصريون على مجرى الأسر المالكة فى استخدام المراضع لأطفالهم ، وقلدهم بعد ذلك أهل الطبقة الوسطى . وتوفرت للمراضع فى الأسر المضيفة مكانة مقبولة سمت بهن عن مستوى التابعات والجوارى ، وسمحت لبعضهن بالإقامة مع أسرة الرضيع مدى الحياة .

واحتفظت المصادر المصرية بنماذج طريفة من صور وفاء الرضيع بمرضعته ، والربيب بمربيته . ومنها أن الطفل كان إذا بلغ سن الشباب وفارق أسرته وراسلها ، حرص على أن يستفسر من حين إلى حين عن أحوال مرضعته القديمة ، على نحو ما يستفسر عن أحوال أهله ، وهكذا كتب شاب (من القرن العشرين ق . م .) رسالة إلى وكيل أعماله ، قال له فيها : «أرجو أن تكتب إلى عن كل ما يتعلق بصحة وحياة مرضعتى تيها» . ومن أرق الوصايا التى تناولت أمر المراضع قول عنخ شا شنقى : «لا تعهد بولدك إلى مرضعة بما يجعلها تتخلى عن ولدها» .

* * *

تفاوتت وسائل تطبيب الأطفال فى الأسر المصرية باختلاف نوعية ظروفها واختلاف مستوياتها الحضارية . فشاعت بين أهلها عقاقير طبية ، ووصفات شعبية ، وتمائم وأحجبة سحرية . فضلاً عن دعوات دينية ورقى متوارثة كانوا يتلونها على العقار والوصفة الشعبية والتميمة السحرية ، اعتقاداً منهم بأن الدواء الذى يصفه المخلوق ينبغى أن يلتمس الناس نجاحه من الخالق .

وتعارف المشتغلون بالطب على وسائل تمييز لبن الرضاعة الصحى من غيره . فاللبن الصحى تشبه رائحته رائحة مسحوق الخروب(؟) ، ولكن اللبن الفاسد تشبه رائحته رائحة خياشيم السمك «محيت» . وتعارفوا على

وسائل أخرى زعموا أنها تكشف عن مدى قابلية المولود السقيم للشفاء قبل علاجه . ومنها أن تسحق الأم جزءاً من مشيمته وتخلطه بلبنها ، ثم تسقيه إياه ، فإن قاءه تكهنت أنه ميؤوس من شفائه . ويستطيع الطبيب بدوره أن يتسمع صوت المولود السقيم ، فإن سمعه يردد . . . نى . . . نى ، رجح أنه سيعيش ، وإن سمعه يداوم الأنين أو سمعه يقول . . . مبى . . . مبى ، ورآه يطأطىء رأسه ، رجح أنه قصير الأجل . .

وابتدع الأطباء عقاقير لتنظيم تبول الطفل والتقليل من صراخه ، وتخفيف أوجاع التسنين ، وعلاج ما يصيبه من النزلات المعوية والرمد والسعال . ولا تزال بعض عقاقيرهم تستخدم الريفيات أمثالها حتى الآن ، فالخشخاش (أو قشوره) كان يستخدم فى الأوساط الشعبية لتنويم الأطفال . وأمراض السعال كانت ولاتزال تعالج ببذور الكراوية وعسل النحل . وعالجوا النزلات المعوية بعقار يتكون من أطراف سيقان البردى وحبوب «سبة» ولبن أم وضعت مولوداً ذكراً . وأوصت بعض مخطوطات الطب بعقاقير معينة لتنظيم تبول الطفل . ومنها أن ينقع المعالج بردية قديمة مكتوبة فى الزيت الساخن ويضعها على بطن الطفل (حتى يتفاعل عليها نبات البردى وحبر الكتابة مع الزيت . وربما نفعت فى علاج السعال أيضاً إذا وضعت على الصدر) . أو ينقع زهور نبات «نبيت» فى جعة طازجة ، ويسقى الطفل من منقوعها . أو يعجن بذور «خنت» على هيئة أقراص يتناولها الطفل مع اللبن أربعة أيام إذا كان رضيعاً ، أو مع الطعام إذا كان قد فارق سن الرضاعة .

أما أوجاع التسنين ، فقد أوصى بعضهم من عقاقيرها بعقار عجيب وهو لحم الفأر المسلوق . ولكن قد يخفف من غرابته أن لحم الفأر ظل يستخدم كدواء فعلاً لدى بعض الإغريق والرومان فى العصور القديمة ، وعند بعض المشارقة والمغاربة فى العصور الوسطى . ويقال إنه كان يوصف فى بعض جهات ويلز بانجلترا إلى ما قبل أجيال قليلة لعلاج أوجاع التسنين أيضاً وتقليل سيولة اللعاب ، وعلاج السعال عند الأطفال .

ولم تقنع الأمهات بوقاية أطفالهن من الأمراض العضوية الظاهرة وحدها ، وإنما حرصن كذلك على وقايتهم من شرور الحسد وما توهمنه من أذى الشياطين وعتاة الموتى . واستخدمن لهذه الوقاية تعاويذ ورقى كثيرة ، مازالت بعض الأمهات يعوذن أطفالهن بأمثالها كلما جن الليل عليهم وبسط عليهم مخاوفه .

* * *

لا شك فى أن اعتماد التطبيب المصرى القديم على العقاقير الفطرية أو الساذجة فى بعض أموره ، واعتقاد الأمهات فى نفع الرقى والتمائم ، كل أولئك يوحى بأن توفيق المصريين فى وقاية أسرهم وعلاج أطفالهم كان توفيقا محدوداً ، لاسيما فى أوساط الفقراء والعوام . غير أن شأن المصريين فى ذلك ينبغى أن يقارن بما كانت عليه أحوال المجتمعات القديمة المعاصرة لهم ، وليس بما أصبحت عليه أحوال المجتمعات الحديثة المتطورة ..

فالتطبيب الفطرى والشعبى والاعتقاد فى نفع الرقى والتمائم كان من شأن الشعوب القديمة كلها . وتميزت الأسر المصرية الواعية من جانبها بعادات محمودة اعتبر الكتاب الإغريق القدامى بعضها آيات تحتذى . وتتصل هذه العادات بنظافة البدن ظاهره وباطنه ، ومنها :

أولاً : عادة غسل الطفل عقب ولادته . وهى عادة يمكن أن يرتب عليها أن الأم المصرية كانت تستحب الاستحمام لطفلها منذ أعوامه الأولى ولا تخشاه . ولقد لا يكون فى ذلك شىء غريب فى منطق العصر الحالى ، ولكن تتضح أهميته إذا قورن على سبيل المثال بما ذكره المؤرخ بلوتارخ من أن أطفال اسبرطه كانوا يكتفون بالاستحمام فى أيام معينة من كل عام .

ثانياً : تقصير شعر الطفل . وذلك أمر عادى هو الآخر ، ولكن المؤرخ هيرودوت رتب عليه نتيجة صحية مقصودة ، وهى رغبة المصريين فى

تقوية جلد الرأس وزيادة صلابته بتعرضه عاريا لحرارة الشمس .

ثالثا : عادة الختان ، ولعلها اعتبرت حينذاك من عوامل نظافة البدن أيضاً ، وارتضتها العقائد السماوية ربما للغرض نفسه ، لاسيما بالنسبة للذكور . وقد شاعت بين الجماعات السامية بخاصة .

رابعاً : غسل اليدين حين تناول الطعام . وهى عادة إن لم يأخذ الطفل بها فى صغره ، فلا أقل من أنه كان يعتاد عليها حين يشب عن طوقه . وكثيراً ما اعتبرت الطسوت والأباريق من أهم أمتعة الأسرة المصرية ، وصورت بجوار موائد القرابين وموائد الطعام حتى فى مناظر الحياة الأخروية .

خامساً : الربط بين النظافة وبين التطهر بالنسبة للبالغين ، كالتطهر من الجنابة ومن النفاس والحيض ، والتطهر قبل أداء الشعائر الدينية . ولعله كان من شأن التزام الكبار بالاغتسال والتطهر ما يجعل الأبناء يتعودونه حين يعون مبرراته وصروراته .

سادساً : تفضيل التوسط فى الطعام والشراب . وقال عنه الحكيم إرسو لولده : «خسىء من شره جوفه» . وقال : «إن قدحاً من الماء يروى غلة الظامىء ، وملء الفم من حشائش الأرض يقيم أود القلب» .

وقال الحكيم آنى لولده : «إذا طعمت ثلاث كعكات وشربت قدحين من الجعة ، ولم تقنع معدتك فقاومها ، مادام غيرك يكتفى بالقدر نفسه» .

وقال ثالث لولده : «لا تجبر نفسك على أن تشرب زق جعة» ، يريد بذلك أن يقول لا تغرنك العافية فتحمل معدتك ما لا تطيق .

سابعاً : روى المؤرخ ديودور الصقلى أن المصريين اعتادوا على الحقن والحمية والمقيئات على فترات متقاربة ، وأنهم برروا ذلك بأن أغلب الغذاء الذى يتناوله الإنسان يزيد عن حاجته ويولد الأسقام ، وأن الاستغناء عن بعضه يستأصل المرض ويكفل العافية . ولا يبعد أن الكبار كانوا

يشجعون أبناءهم على هذه العادة منذ الصغر حتى يألفوها حين الكبر (مثل التعود على شرب زيت الخروع ومنقوع السلامكة) . وصدق رسول الله (صلعم) فى قوله إن : «المعدة بيت الـداء والحمية رأس الدواء» .

وأخيراً فليس من المستبعد أن العادات المحمودة التى أخذت بها بعض الأسر المصرية الواعية فى أمور النظافة ومراعاة التوسط فى الطعام والشراب ، كان لها بعض الأثر فى تخفيف أضرار الخرافات والاعتماد على الرقى والتمائم التى اعتادها عامة الناس وشجع عليها أدعياء الطب والسحر وصبغوا بها كثيراً من وسائل الوقاية والعلاج طوال العصور القديمة .

* * *

الفصل السادس

من التسميات القديمة للمواليد

على نحو ما يجرى أحياناً حتى الآن ، كان لتسمية الطفل فى مصر القديمة اعتبار خاص فى محيط الأبوين ، لاسيما بالنسبة للمواليد المميزة ، أى المولود البكر ، والولد الأول بعد عدة إناث ، أو البنت الأولى بعد عدة أولاد .

وعلى الرغم من أن أغلب الأسماء والكنيات الشخصية تفقد مدلولها الحرفى عادة بعد شيوع استعمالها ، الا أن طائفة من مدلولاتها المميزة لا تخلو أحيانا مما تؤثر به فى التكوين الوجدانى لحامليها من الصغار أو الكبار ، ولا تخلو أيضاً مما تعبر به عن الروح الشائعة فى مجتمعها وطابع العهد الذى ظهرت فيه .

وتضمنت المسميات الشخصية المصرية القديمة من حيث المحتوى أسماء دينية الطابع ، وأخرى دنيوية الصبغة . كما احتوت من حيث المبنى على أسماء بسيطة التركيب ، وأسماء أخرى مركبة الصياغة تظهر عادة فى شكل جملة تامة . وقد شاع بعض هذه وتلك طوال العصور القديمة كلها ، بينما اقتصر تداول بعضها الآخر على عصور دون غيرها أو أكثر من غيرها .

ومع التسليم ابتداءً بوضوح اختلاف الأسماء الشخصية فى مصر القديمة عن الأسماء الشخصية الحالية فى كل من اللفظ والتركيب أو المبنى والمعنى ، تبعاً للاختلاف الزمنى واللغوى والعقائدى بين الماضى وبين الحاضر ، إلا أن الخلفيات المعنوية والنفسية للبعض منها تتشابه فيما بينها إلى حد ما . ويتضح هذا فى غلبة تعبيرها عن روح التدين ، والإقرار بفضل المعبود ، والتأثر بالظروف الاجتماعية والسياسية والأسرية المعاصرة لها .

وهكذا نجد من نماذج مدلولات بعض أسماء الأولاد التى نذكر بعضها فيما يلى بصيغها المصرية القديمة للتعريف بها ، ونذكر بعضها الآخر بمعانيها تخففاً من غرابة نطقها (مع تأجيل نماذج أسماء البنات إلى صفحات تالية) :

١ - كثيراً ما كان المولود يسمى باسم يتمنى الخير له مثل «سنب» أى سليم ، «واوف عنخ» أى يحيى ، «ومرى» «ومرو» ، «وحسى» ، أى محب ، ومحبوب ، وممدوح ، «ونختى» أى شديد ، و «سنبفنى» أى يسلم لى ، و « عنخ تيفى » أى سوف يعيش (طويلاً) ، وهلم جرا . أو يسمى باسم يتمنى الخير لذويه مثل ما يعنى « عاش الوالد » ، و « عاش الأخوة » (ربما بمعنى أنه عوض عنهم كما يقال الآن عوض ومعوض وعوضين) .

٢ - وقد يسمى الطفل باسم يميزه بين إخوته وأقربائه ، مثل «نبسن» أى سيدهم ، و«باسر» ، و «باحرى» أى الريس ، و «إيتسن» أى رئيسهم . ولازالت أسماء سيدهم وزينهم ، والأمير والحسن (وكذا ستهم ورئيسة) شائعة حتى اليوم .

٣ - وقد يسمى بصفة جسمية ما ، مثل الأسود أو الأسمر ، أو الأحمر ، توارثاً للقب الأسرة ، أو للتمييز بين أخوة يحملون اسماً واحداً بناء على لون البشرة أو لون الشعر لكل منهم . أو يسمى بما يعنى الصغير ، والطويل ، والضرير ، وأبو عين (جاحظة) ، وجميل الوجه ، وجاى زى النجم ، وأبو رأس كبيرة (أبو رأسين) ، وأبو كف .

٤ - وقد ينسب المولود إلى بلدته أو مكان ولادته ، مثل المنفى والطيبى ، كما يقال الآن طنطاوى وشبراوى ودمياطى . . . إلخ . . . أو ينسب إلى حرفة ما مثل النجار ، والجندى ، والبدوى ، والفلاح . وإن كانت هـذه أقرب إلى الكنيات التى تتوارثها الأسر أكثر منها إلى الأسماء المباشرة .

٥ - وقد يشتق اسم الطفل من ظروف وضعه ، أو من عبارة نطقت بها الأم أو القابلة حين ولادته ، مثل «إيمحوتب» أى الآتى فى سلام ، و (مرحباً) ، و «إيمسخ» أى جاء بسرعة ، و «ساإو» أى ابن قادم ، وما يعنى «كم تمنيته» . (وقد يقارن هذا بعكسه فى مثل تسميتى متعب وعسران لدى بعض الأعراب ، كما يقارن بتفسير التوراة لأسماء إسحق وعيسو ويعقوب وغيرهم وهى أسماء تتصل بظروف ولادتهم .

٦ - وقد يسمى عرضاً باسم حيوان أو نبات أو شىء ما ، مثلما يقال حتى الآن ديب ونخلة وصقر وعصفور والجدى والقط والسبع والنمس . . ، وعقيق وفيروز . . إلخ .

٧ - وقد يسمى الطفل باسمين ، اسم عادى واسم تدليل ، أو اسم عادى وكنية ، أو اسم يختاره له أبوه إرضاء لأهله ، واسم تفضله له أمه إرضاء لأهلها . بل وقد يسمى بثلاثة أسماء أحياناً من هذه وتلك ، ويكون منها ما يمجد به اسم الملك الحاكم بصفة جليلة ما وهو أمر شائع كما سوف يرد النص عليه .

٨ - تلونت معظم أسماء المواليد المصرية القديمة بروح التدين الغالبة على مجتمعها ، ورغبة الإشادة بمعبودات قومها والإقرار بفضلها . وعلى نحو ما يقال حتى الآن إن خير الأسماء ما عبّد وحمّد ، تأثراً بروح التدين الإسلامى ، كان من الأسماء المصرية القديمة ما يربط بين المولود وبين معبود ما (لأسرته أو بلده أو قومه) برباط التبعية والعبودية فى عبارة تامة المدلول مثل : «حسى رع» أى مداح رع ، ومثل : «حم رع» ، و «باكن أمون» ، أى خادم رع ، وعبد آمون . وبرباط التنزيه والتبجيل مثل «نثروسر» أى الرب غنى ، و «أمنمحات» أى آمون فى الصدارة ، و

«آمون وع» أى آمون واحد . ووصف المعبود بصفات القدرة والبهاء والجلال مثل «نفرحرن بتاح» أى جمل وجه بتاح ، و «تحوتى نخت» أى المعبود تحوتى مقتدر ، و «أوزير عنخ» أى أوزير حى . ورباط الشكر مثل «نفرإرت بتاح» أى خير ما فعله بتاح . ورابطة التوكل مثل «عنخى مع بتاح» أى حياتى فى يد بتاح . بل ورابطة القرابة والبنوة والأخوة أيضاً (فى حدود ما سمحت به العقائد القديمة) وبما يعنى رعاية المعبود له كابن أو أخ ، مثل «ساأمون» أى ابن أمون ، و «سنموت» أى أخ المعبودة موت . وقد يتأثر الاسم فى الأوساط المثقفة بمذهب عقائدى خاص فيشبه إلهاً بآخر ، أو يوحدهما فى كيان واحد .

٩ - وقد يحمل الاسم معنى النسبة إلى المعبود مثل «حورى» أى المنسوب إلى المعبود حور ، و «سيتى» أى المنسوب إلى المعبود ست . أو يحمل معنى استخارة الإله فى شأنه قبل مولده مثل «جد بتاح اوف عنخ» أى قال بتاح إنه سيعيش ، أو يعتبره عطية منه مثل «بادى أوزير» أى من وهبه أوزير ، أو عطية أوزير .

١٠ - وقد يسمى الطفل بيوم مولده ، مثل «طفل اليوم الثامن أو التاسع» على نحو ما يقال الآن خميس وجمعة (وكانت الأيام تعرف قديماً بترتيبها وليس بأسمائها) . وقد يراعى ترتيب ولادة الأبناء فيقال «وعتى» أى وحيد ، وما معناه : التوأم ، والثانى ، والثالث ، والرابع . وندر أن زاد العدد عن الخامس على الرغم مما اشتهر به المصريون من حب كثرة النسل (ويمكن مقارنة اسم العدد هنا بتسمية السيدة «رابعة» العدوية) .

١١ - وقد يسمى باسم مناسبة دينية أو وطنية يحتفى بها فى حينها ، مثل تسمية «حور محب» أى المعبود حور فى عيد ، و «أمنمأبة» أى آمون فى الحرم . وما يعنى وجود تمثاله فى البحيرة المقدسة أو فى معبد زوجته موت إذا صادفت ولادة الطفل يوم الاحتفال بعيده ، وهو ما قد يتشابه إلى حد ما مع ما يقال الآن فى تسميات رجب وشعبان ورمضان وعيد

وبشاى حين وقوع الولادة فى مواسمها .

١٢ - وقد يسمى الطفل باسم شائع أو مستحب فى الأسرة (لجد أو خال أو عم) . كما يسمى باسم ولى العهد أو الملك الحاكم ، إما عن طريق استعارة حرفية الاسم نفسه مثل خيتى وأمنمحات وسنوسرت وأحمس وأمنحوتب وخعمواسة ، تبعاً لشهرته ، أو لولادة الطفل فى يوم مولده أو يوم تتويجه . وغالباً ما يضاف إليه ما يتضمن الإشادة به والولاء له والدعاء من أجله مثل «خوفو عنخ» أى خوفو حى ، أو عاش خوفو ، و «خفرع عنخ» ، «وببى نخت» . وقد يضاف ما يقول على سبيل المثال : «سيتى فى بيت تحوتى» ، تعبيراً عن تقوى الملك سيتى وزيارته لمعبد تحوتى ، وما يعنى : «مولاى على رأس جيشه» إذا صادفت الولادة يوم خروج الملك أو عودته على رأس جيشه . (ويقارن هذا بتسمية البنت وحدة أو معاهدة مثلاً منذ سنوات قريبة فى مناسبة إعلان الوحدة أو توقيع المعاهدة ـــ وهو أمر مردود إلى اختيار أحد الأبوين ومدى تأثره بحدث ما) .

١٣ - وكان من الكنيات التى تطلق أحياناً على الأبناء ما يلتصق بهم أكثر من أسمائهم ، ويكون لها من وضوح المدلول ما يمكن أن تؤثر به إلى حد ما فى شخصياتهم وفى طريقة معاملة الغير لهم ، عن قصد أو غير قصد ، تأثيراً قد ينفعهم أحياناً أو يضرهم أحياناً أخرى .

ومن الأسماء المصرية القديمة ذات الوقع الطيب أسماء «باماى» ، أى السبع ، و«وسرحات» أى الجسور ، و«سنزم إب» أى مسعد القلب ، و «إوف نى رسن» أى سيكون لى أخا . . . ، والمسعد ، . . . إلخ .

ويختلف تأثير هذه الكنيات أو الأسماء عن كنيات وأسماء أخرى ربما أرادت الأمهات أن يدفعن بها الحسد وعين الشر عن أطفالهن ، مثل : «جار» أى عقرب ، و «بنو» أى الفأر ، و «سنحم» أى جرادة ، «وثنم» أى حلة ، و«نرخيسو» أى «ما أعرفهوش» ، و«بورخف» أى العبيط ، و «نن رنف» أى ما كان اسمه . كما يقال الآن «خيشة» و

«شحته» و«شحات» مثلاً ــ وكلها فى الأغلب من أسماء العوام ، ومثلها قرع ، والقزعة أو القزم . وقد تسمى الخادمة ولدها «ابن سيدى» أو «ابن السيد» .

١٤ - لم يكن المصريون القدامى ينادون أطفالهم بأسمائهم كاملة دائماً ، وإنما كانوا يختصرونها ويحورونها ، ويرخمونها وينغمونها . وهو أمر طبق على بعض أسماء الملوك العظام أنفسهم مثل خوفو العظيم صاحب الهرم الأكبر ، الذى كان اسمه الكامل هو «خنوم خوفوى» . وقد يستبقون الجزء الأول من الاسم ويختزلون بقيته ، أو يأخذون منه حرفاً أو حرفين ويضيفون إليه نهاية تدليل أو تكرار ، كما يجرى حتى الآن فى مصر وفى غيرها . ومن الطريف أنهم ولدوا أسماء رقيقة قد يتبادر إلى الذهن من عذوبتها أنها من ابتكارات العصر الحديث ، ومنها أسماء إيبى ، وبيبى ، وتى ، وتوى ، وتيتى ، وميمى ، وفيفى ، ونخوى ، وشرى ، ومحب ، . . . . إلخ . والأطرف أن اسم الملك رمسيس الثانى العظيم كان يخفف أحياناً إلى اسم سيسى ، واسم سوسو ، وذلك مما يعنى أن أغلب أسماء المصريين القدماء لم تكن بالصعوبة التى تبدو بها الآن .

١٥ - وحين يتداخل اسم معبود فى اسم الطفل ، فغالباً ما كان المنادى يتخطى اسم المعبود تأدبا أو تخففا ، فيختصر اسم أمنمحات إلى محات ، وأمون محب إلى محب ، ومنتو مساف إلى مساف ، ومرى بتاح إلى مرى . ولكن دون التحرج أحياناً من النداء باسم المعبود نفسه أو التسمية به مثل «حور» و «خنوم» و «وننفر» (وهو أوزير) . ولا ضرورة لاستهجان هذا الاتجاه الأخير تماماً أو الظن بتطاول المصريين القدامى على معبوداتهم إذا لوحظ أن مجتمعنا المعاصر قد يختصر اسم عبد الحليم إلى حليم ، ويختصر اسم عبد المنعم إلى منعم ، دون أن تتطرق إلى الذهن أية شبهة للاجتراء على الدين ومقدساته ، وذلك بما يعنى مرة أخرى أنه لا ينبغى التسرع فى نقد الحضارات القديمة دون بحثها

بما يتناسب مع عصورها القديمة وظروفها الخاصة ، ومقارنتها بغيرها مما عاصرها أو أعقبها من الحضارات .

من مدلولات تسميات الإناث :

١٦ - اشتركت أسماء الإناث فى مصر القديمة مع أسماء الذكور فيها فى بعض خصائصها وانفردت عنها ببعض آخر .

ودلت معظم أسماء البنات فى المجتمع المصرى القديم على أن أغلب الأسر كانت تتقبل مولد الأنثى بقبول حسن وترضى بها رضا قد يقرب من رضاها بمولد الذكر . ونقول يقرب من الرضا بمولد الذكر دون إغفال الأمر الواقع من أن أغلب الشعوب القديمة ظلت تؤثر الولد على البنت بناء على اعتبارات متنوعة ، بعضها محتمل بالنسبة لعصره ، وبعضها مفتعل . ولم يكن هذا الإيثار واضحاً لدى المصريين وضوحه لدى غيرهم من المجتمعات المعاصرة لهم .

١٧ - واتسمت أغلب تسميات بناتهم بطابع العذوبة والإعزاز ورغبة التدليل . وهى تسميات يسهل التعبير عن مدلولاتها باللهجة الدارجة أكثر من اللغة الفصحى . وكان منها على سبيل الاستشهاد أسماء : «نفرة» أى جميلة ، و «نفرو» أى جمال ، و«بنرة» أى طعمة ، و «حريرة» أى زهرة ، و «سشن» أى سوسن أو زهرة اللوتس ، و «جحسة» أى غزالة ، و «نفرتارى» أى حلوتهم أو حلاوتهم ، و «حرس نفر» أى وجهها جميل (أو حلوة المحيا) ، و «مررة» أى محبوبة ، و «حنوت نفرة» أى السيدة الجميلة .

١٨ - ومن أسمائهن ما يكشف عن استبشار الأبوين بمولدهن ، مثل «دوات نفرة» أى صباحية مباركة ، و «وبة نفر» أى قدم الخير ، أو بشيرة

السعد . وما يعنى بالعامية هاتـوها ، ويـاريتها تعيش لى ، وخلونى أشوفها . ومثل «حنوت سن» أى ستهم ، و«سات مريت» أى الابنة الحبيبة ، و «سنب حنعس» أى معها السلامة ، و «نحنتى» أى رجائى أو اللى رجيتها ، و «تاحر نحنس» أى الدنيا تدعو لها ، و «نفرتيتى» أى الحلوة جاية أو الجميلة آتية ، و «رنس مابى» أى اسمها فى بالى ، و «بونفر» أى الجمال . وقد يقول الأب عن الوليدة التى ماتت أمها بعد وضعها «لتكن عوضا عنها» ، أو ينسبهـا إلى نفسه فى اسم «مـريت إيتس» أى حبيبة أبيها ، و «سنت إيتس» أى أخت أبيها ، و «موت إيتس» أى أم أبيهـا ، إذا شابهت أختـه أو أمه أو تمنى لهـا أن تقوم مقامها .

١٩ - وشأنها شأن أسماء البنين ، كثيراً ما ألحقت أسماء البنات باسم معبود أو معبودة ما بروابط الولاء والتبعية ، أو الشكر والتمجيد ، بل والبنوة والأخوة (الرمزية) أيضاً .

٢٠ - وكما هو متوقع ، غالبا ما كانت أسماء البنات تختصر وتحور ، وترخم وتنغم أكثر من أسماء البنـين ، وينادبهن أهلهن بمثـل أسماء «تبس» و«نبت» ، و«شيشى» ، و«إينتى» . . . . إلخ .

٢١ - وكان لتسميات الأوساط الشعبية تعبيـرات تنم عنها أحيـاناً ، ومن أسـماء التدليـل فيها للبنـات : «تاميـة» أى القطيـطة ، « أوبة » أى فتفوتة بل وشخليلة ، والرقـاصة . وقـد تخشى الأم الحسد عـلى طفلتها فتسميها «جمت موتس» أى اللى لقيتها أمها ، و«نرختوسى» أى ما حدش يعرفها ، و«تقرورة» أى ضفدعة ، «وقرفة» أى بقجة ، و « ستا إرة بينة » أى (اللهم) ابعد العين الشريرة أو اكفها شر العين ، «وثـاى إيسة إمـو» أى تمسك الـربة إيسة بهم (وهم الحـاسـدين أو

الشياطين) . ولم تكن الأمهات على سواء فى الترحيب بمولد الأنثى ، وكانت منهن من تتبرم بكثرة بناتها فتسمى صغراهن «إوسرإخ» أى عاملة كده ليه ؟ ، وما إلى ذلك من أسماء معبرة عن حالاتها الخاصة .

٢٢ - وثمة أسماء مصرية قديمة مشتركة كان يسمى بها الولد والبنت على سواء مثل أحمس أو إعحمس (أى ولد القمر) ، وما يصف حدثاً لاصله له بتذكير ولا تأنيث ، مثل اسم يقول «آمون فى الحرم» ــ وقد تقارن أمثال هذه الأسماء بما يشيع حتى الآن من أسماء مشتركة للبنين والبنات مثل قمر ونور وبدر وجمال وعفت . . . إلخ .

٢٣ - وأخيراً ، فليس من المستبعد أن روح التوسط النسبى فى تقبل الأبناء والبنات ظل أثرها باقيا فيها لازالت بعض الأمهات الشعبيات يرددنه من أهازيج الهدهدة التى ترحب بمولد البنت بما يقرب من ترحيبها بمولد الولد ، وتقول الأم فيها بلهجتها العامية :

لما قالوا لى ده غلام ــ اشتد ضهر أبوه وقام .
وجانى الحبايب هنونى ــ ومن فرحتى ما جانى منام .
لما قالوا لى دى بنية ــ قلت يا ليلة هنية .
بنتى الحبيبة أهى جاية ــ تنفعنى وتحن علىّ .

ومع ذلك فلا يخفى هنا أن الأم تجعل الولد أملها ، وأمل زوجها ، ومبعث تهنئة الحبايب أيضاً ، بينما هى توشك أن تجعل البنت عضدا لها وحدها .

***

الفصل السابع

الأبوان والأطفال فى المناظر ومجموعات التماثيل

صورت بعض المناظر والتماثيل الصغيرة والنصوص المصرية القديمة ، صوراً طبيعية مختلفة من رعاية الأم لوليدها فى سنيه المبكرة . فهى تحتضنه رضيعاً لما يتراوح بين العامين والثلاثة ، وغالباً ما ترقده معها ، وتحمله على خاصرتها ، أو على كتفها أو حول كتفيها ، وقليلاً ما تحمله بين يديها من أمام فى مستوى بطنها . وإذا خرجت به حملته بالأوضاع نفسها ، أو حملته عنها خادمة على خصرها وشدته إليها بشال عريض . وإذا بدأ الطفل المشى تعلق بيدها وهى خارجة ، أو أجلسته معها فى محفة الخروج . ومن المناظر والتماثيل الصغيرة أيضاً ما يمثل الأم فى دارها تمشط شعور بناتها ، وتضم إليها أولادها ، وتستمتع بمرحهم معها . وقد تصور الأم تضع ولدها على حجرها ، أو يمثله المثال واقفاً بجوار مقعدها وهو يريح يده على فخذها بينما هى تربت بيدها على ذراعه فى حب متبادل .

ولم يفت بعض الفنانين المصريين القدماء أن يسجلوا صوراً من حياة العطف والتواد بين الأب وأولاده ، وبما يدل على أن الأب المصرى لم يكن

بالرجل الفظ الذى يتباعد عنه أطفاله ، على الرغم مما كان يلزمهم به من اداب السلوك التقليدية أمام المجتمع . فصور الأب أحياناً يتطامن لولده الصغير حتى يصعد على فخذه ويقف عليه مستنداً على ذراعه ، أو يجلسه هو على حجره ويحيطه بذراعيه .

وكثيراً ما صور الأب يضع يده فى يد ولده الصغير دليل التماسك بينهما ، أو يضع يده على رأسه كأنما يباركه . وصورت البنت بالمثل أحياناً تستند بيديها على كتف أبيها ، أو تلمس كتفه وهو يلعب الدامة مع أمها .

وصورت المناظر بعض ما يكون بين الأطفال الأخوة الصغار حين يمسك بعضهم بأيدى بعض ، ويدلل بعضهم بعضاً ، ويضم بعضهم بعضاً ، ويركب بعضهم فوق ظهور بعض ، وكشفت بذلك عن روح طبيعية طلقة أخذت الأسر المصرية بها فى معاملة صغارها ولم تر فى تصويرها على جدران المقابر ما يجافى قداستها ووقارها ، ولعلها استحبت أن تدوم لها أمثالها فى أخراها .

ويفهم من قصة سنوهى أن بنات الملك سنوسرت الأول كن يحيين أباهن الملك صباحاً أحياناً بترانيم شعرية وتوقيعات موسيقية ، حتى فى حضرة بعض ضيوفه المقربين .

ومن أمتع ما يجسد روع التواد بين الملوك وبين أبنائهم وبناتهم تلك المناظر والتماثيل التى صورت آخناتون وزوجته نفرتيتى وكل منهما يجلس بناته على حجره ، أو يرفعهن فى تدليل ، أو يقبلهن ويتقبل عبثهن معه فى سعادة غامرة . وتحتسب هذه الظاهرة والظاهرة السابقة عليها لصالح البنات وأوضاع الإناث .

وصور الرسامون والمثالون المصريون عدداً آخر من الأوضاع المثالية التى ارتضاها المجتمع من الأبناء فيما بعد سن الطفولة المبكرة . فالولد غالباً ما يصور واقفاً مع أبويه الجالسين . وتظهر البنت معهما واقفة أو جاثية وقلما ظهرت جالسة . وقد يفترش الولد والبنت الحصر ، أو يجلسان على مقاعد

منخفضة حين تناول الطعام ، بينما يجلس أبواهما على المقاعد المرتفعة . ولم يكن من الحتم بطبيعة الحال أن يتقيد الأولاد والبنات بهذه الأوضاع دائماً وإنما هى أوضاع مثالية كما ذكرنا ، كانت تستحب فى مناسبات خاصة ، وتستهدف تأكيد الأواصر بين أفراد الأسرة وأخذهم بآداب السلوك .

***

وتعود بنا صور الطفولة إلى مشكلات العرى والثياب فى مصر القديمة مرة أخرى . فبينما جرى أغلب الفنانين المصريين على تصوير معظم الأطفال عراة تماماً يضع كل منهم سبابة يده على فمه ، وتنسدل جديلة شعر سميكة على صدغه ، تحدثت مصادر مصرية قديمة أخرى عن ملابس الأطفال ، كما صورت بعضهم يقفون بجانب آبائهم فى انتصابة ثابتة تدل على بلوغهم سنا لا يجهلون معها خطأ كشف عوراتهم دون حرج ، وخطأ وضع أصابعهم على أفواههم كأنما يطلبون الرضاعة أو يبغون الطعام .

وفيما بين هاتين الظاهرتين المتقابلتين نرى من جانبنا تفسير ما جرى عليه معظم الفنانين القدماء من تصوير عرى الطفولة وتمثيله على الرغم من احتمال مخالفته للواقع ، بعدة أسباب . ومن هذه الأسباب أن يكونوا قد ورثوا تصوير هذا الوضع عما سبقهم من عصور ما قبل التاريخ المبكرة وقلدوه ، ثم اعتادوا عليه واعتبروه تقليداً فنياً واجب الاتباع . أو أن يكونوا قد تقبلوه باعتباره وسيلة فنية تعبر عن حداثة السن وبساطة حياة الطفولة بوجه عام ، وتعوض فى الوقت ذاته عن صعوبة إظهار تقاطيع الأطفال بدقة فعلية . ويتماثل بعض هذا إلى حد ما مع ما لازال بعض الآباء والأمهات يجيزونه فى العصر الحاضر من تصوير الطفل فى مرحلة الرضاعة والحبو عاريا كما ولدته أمه ، بينما هم يدثرونه فى غير لحظة التصوير بما قد ينوء بحمله من اللفائف والملابس ، وذلك عن رغبة منهم فى تسجيل بساطة حياته وما فيها من براءة وسذاجة ، وما يتخيلونه فى جسمه من ليونة وطراوة ، فضلاً عن الاعتقاد بأنه ما من حرج عليهم فى إظهار عورته فى صور يراها الصغار أو الكبار .

وأخيراً ، ومع شيء من التجوز فى توضيح خصائص الفن المصرى القديم يمكن تشبيه استخدام الفنان المصرى القديم لما قدمنا شرحه من رمزية العرى النصفى للرجال ، والعرى الضمنى للنساء ، والعرى الكلى للأطفال ، بأمثلة أخرى قديمة . ومن أهم هذه الأمثلة ما اعتاده الفنانون الإغريق القدامى من تمثيل الشبان الرياضيين بل والرجال الرياضيين ذوى اللحى ، فى عرى كامل تماماً ، رغبة منهم فى تأكيد تناسق الجسم الرياضى ، وإظهار دقة تكوينه ، وإبداع تفاصيله ، حتى وإن اختلف هذا العرى الفنى مع واقع الحياة الفعلية لأصحابه . وعندما اعتاد الناس على مشاهدة هذا العرى وعوراته جيلاً بعد جيل ، تناسوا ما فيه من تجن على قيم الحشمة والحياء ، وتقبلوه حتى بالنسبة لصور معبوداتهم ذاتها .

***

لعب وألعاب الصغار :

وجد فى بعض آثار مصر القديمة ومناظرها المصورة لكل سن صغيرة ما يناسبها من لعب وألعاب . وبقيت من لعب الأطفال دمى وعرائس كثيرة صنعت من الخشب والعاج والطين والجلد والحجر . ولا تكاد بعض نوعياتها تختلف كثيراً عن عرائس ودمى أبناء الأوساط الشعبية فى مصر المعاصرة .

ومن أمتع اللعب المصرية القديمة اللعب المتحركة . وثمة واحدة منها صنعت من العاج ، ووجدت فى قبر صبية تدعى حابى ، فى فترة ما من الدولة الوسطى . . ومثلت فرقة أقزام راقصة يعتلى أفرادها خشبة مسرح صغير ، ويقودهم رئيس (مايسترو) يضبط الإيقاع لهم بالتصفيق . ويتخذ كل من اللاعبين وضعاً ينم عن دوره . فيفغر أحدهم فاه كأنه يغنى ، ويخرج الثانى لسانه كأنما يتفكه ، وينثنى الثالث بجسمه مظهراً براعته . واتصلت بقواعد الأقزام خيوط متينة كانت الصبية تحرك بها أفراد الفرقة أنى شاءت .

وإلى جانب اللعب التى مثلت هيئات بشرية ، وجدت لعب أخرى تمثل حيوانات يمكن تحريكها . ومنها ما يمثل تمساحاً ذا فك متحرك يحركه الطفل

بخيط يتصل به ، وضفدعة عاجية صغيرة ذات فك متحرك أيضاً ، ولبؤة خشبية ذات فك متحرك كذلك تبدو كأنها تسير فى خطو متثاقل وئيد ، وقطة خشبية ذات فك متحرك وعينين مطعمتين . ولعبة متحركة تجمع بين إنسان وحيوان وتمثل رجلاً مذعوراً ومن ورائه كلب يستطيع الطفل أن يحركه فيبدو كأنه يلاحق فريسته .

وشاعت العرائس والدمى العادية بين لعب الأطفـال ، ومثلت أشكالاً إنسانية وأخرى حيوانية ، وثالثة جمعت بين هيئـة الانسان وهيئـة الحيوان . وصنعت بما يناسب إمكانات الأسر المختلفة ، أى من الخشب والصلصـال والفخار والقاشانى والحجر والعاج .

وصورت على بعض هذه العرائس أشكـال القلائـد ورسوم تخـطيطيـة وحيوانية . وزين بعضها بخصل من الشعـر الطبيعى وشعـور مستعارة من الخيوط المجدولة والصوف وحبات الطين المسلوكة فى خيوط على هيئة الخرز . وتميز بعضها بأذرع تتصل بأجسامها بوصلات خشبية صغيرة بحيث يستطيع الطفل أن يحركها ويتخيل الحياة فيها .

ومن أطرف الدمى دميـة تمثل قـردة أجلست ابنتها أمـامها لتمشط لهـا شعرها ، على نحو ما تفعل الأم البشرية مع بناتها .

ودمى أخرى تجمع بين الإنسان والحيوان ، ومنها قرد يجر عربة ، وطفل يلاعب جروا ، وفارس أو سائس يمتطى مهرة ذات عرف قصير ويشد لجامها ، وقزم برأس قط ، وأسير برأس بطة ، ونمس يهاجم ثعباناً ، ووحش يفتـك بزنجى ، وفيل يعلوه راكبه .

ويشب الطفل عن طوقه ، وينصـرف عن العرائس والـدمى والألعاب الفردية إلى الألعاب الجماعية ومزاملة رفاق سنه . وفيما بين حدائق القصور وسطوح الدور ، وخلال الأزقة والأطلال والحقول ، مارس الأطفال صنوفاً عدة من الألعاب المرحة لا تكاد تفترق عن ألعاب أطفال القرى اليوم فى شىء كثير .

ومن الألعاب التى صورتها بعض المناظر المصرية القديمة لعبة لازالت تمارس باسم خزّا لاوزة ، ويجلس لها صبيان متقابلان يضع كل منهما قدماً فوق الأخرى ، ويتتابع أطفال آخرون فى القفز فوقهما ، ثم يزيد كل منهما قبضة يده فوق قدميه مرة ، وكفه مرة ، وكفيه مرة أخرى . .

ولعبة أخرى كان الصبيان يتبارون فيها على اقتلاع أدوات مدببة يرشقونها أولاً فى كتلة خشبية ، ثم يحاول كل منهم أن يسبق غيره إلى اقتلاعها والقذف بها بعيداً بضربة عصا سريعة . وكانت تؤدى بثلاث وسائل ، يشترك فيها اثنان أو ثلاثة ، ويمسك اللاعب فيها عصا أو عصوين ، ويضرب فيها أداة مدببة واحدة أو أداتين . . . ، ولعبة ثالثة كان الصبيان يعتمدون فيها على أعقاب أقدامهم ويدورون عليها فى شبه حلقة دائرية ، بحيث يقف اثنان منهم فى محورها ، ويمسك كل منهما بيدى زميلين له يميلان إلى جانبيه . . . ، ورابعة كان اللاعبون ينقسمون فيها فريقين ، ويحاول كل منهما أن يجذب الفريق الآخر ناحيته ، مما يشبه لعبة شد الحبل الحالية . . . ، وخامسة كانوا يلعبون فيها بعصى معقوفة وطوق ، فيقف اثنان على جانبى الطوق ويسلك كل منهما عصاه فيه بحيث تتشابك مع عصا زميله ثم يحاول كل منهما أن يخلص عصاه ويجذب الطوق بها قبل زميله . . . . ، وسادسة تشبه لعبة «عساكر وحرامية» يتظاهر الصبيان فيها بجدية مفتعلة لطيفة . . . ، وسابعة تشبه لعبة جوز ولا فرد ، يلعبونها بزهر أو حصى ، ويؤدونها بثلاث طرق يشترك فيها اثنان أو ثلاثة أو أربعة . . ، وثامنة يقف فيها ثلاثة أولاد جنباً إلى جنب ، ويصعد رابعهم ليتنقل فوق أكتافهم معتمداً على يديه وقدميه ، بما يشبه بعض تمارين الجمباز الحالية .

وتميزت عن هذه الألعاب الساذجة ألعاب أخرى ناضجة سجلتها مناظر مصرية قديمة ترجع إلى حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ، وتضمنت تمريناً للف الجذع الأعلى فى شدة ، وتمريناً آخر يعتمد فيه غلام على ناصية رأسه ويقيم جسمه محتفظاً بتوازنه فى استقامة كاملة دون ارتكاز على يديه أو كفيه ،

وأوضاعاً مختلفة أخرى يشترك الصبية فيها فيما يشبه العرض الرياضى المرح ويكتسبون بها نصيباً من الرشاقة ومرونة الحركة .

ومارس الفتيان عدا هذه الألعاب ألعاباً أخرى يتطلب أداؤ ها نصيباً من الجهد والتمرين والمهارة ، مثل المصارعة وحمل الأثقال والقفز والتحطيب والعدو والسباحة والتجذيف ، وكان يؤديها الشبيبة عادة هواة ومحترفين ، ويحاول الصغار أن يقلدوهم فى بعضها كلما استطاعوا .

وهيأ لأبناء الطبقتين الثرية والوسطى ممارسة ألعابهم الجماعية عدة عوامل ، منها وجود قواعد أساسية لها تجرى بمقتضاها ، لاسيما بالنسبة للمصارعة ، ورضا الأهل عن ممار ستهم لها مع زملائهم ، وقد بلغ بهم هذا الرضا فيما ذكرنا إلى حد السماح بتصويرهم يؤدونها على جدران مقابرهم رغم الطابع الدينى والأخروى لهذه المقابر . ومنها كذلك أن أغلب الدور الكبيرة القديمة كانت دوراً عائلية بمعناها الواسع ، قد يسكنها رب الأسرة وأولاده المتزوجون وأحفاده ، وتتوفر فيها أحياناً حدائق متسعة وأفنية رحبة . وذلك على العكس بطبيعة الحال من بيوت العامة التى صورتها المناظر والأطلال الباقية وطيئة ضيقة متلاصقة ، والتى لم يكن لأطفالها أن يمارسوا ألعابهم الجماعية فى غير الأزقة ، وقرب المزارع ، وبين الأطلال القديمة ، كلما تحرروا من العمل ومن السعى وراء كسب الرزق .

* * *

وعلى الرغم من طابع الاحتشام والتحفظ بالنسبة للإناث ، صورت بعض المناظر المصرية القديمة شغف البنات بأداء ألعاب مرحة فى وحدات صغيرة تشترك فيها خمس منهن ، أو ست ، أو من هن أقل من ذلك أو أكثر ، فى اللعب بكرات اليد الصغيرة ، وفى أداء رقصات مهذبة رشيقة ، وأخرى أكروباتية جريئة مثيرة .

ولعبت البنات كرة اليد بأساليب شتى تشبه أساليبها الحالية إلى حد ما . ومنها لعبة المحاورة ، ولعبة أخرى تعتلى فيها فتاتان ظهرى زميلتين لهما ، مع

إرسال الساقين جانباً ، وتتقاذفان كرتين فى سرعة وخفة ، ومن فشلت منهما فى تلقف إحدى الكرتين نزلت عن ظهر صاحبتها لتصبح مركوبة لها . وطريقة ثالثة تلعب فيها كل فتاة بكرتين أو ثلاث كرات وتتلقاها بكفيها فى سرعة وتتابع جاعلة يديها منفرجتين أو متخالفتين على صدرها .

ومن البنات من كن يؤدين الألعاب الراقصة برفع ساق وخفض أخرى ، مع التوقيع بالكفين لضبط الحركة ، أو تحريك أجزاء الجسم فى حركات رشيقة ، مع التصفيق الرتيب المرح .

ومن الشابات من اشتركن فى لوحات حركية جريئة قد تقلب الواحدة فيها زميلتها رأساً على عقب ، وقد ترسل الواحدة ساقيها على كتفيها ، أو تنثنى بهما إلى الخلف فى انثناءة تقرب من هيئة نصف الدائرة . وربما قلدت بعض هذه اللوحات ما كانت تقوم به المحترفات للألعاب البهلوانية أو الأكروباتية . وكلها ظواهر تصور طابع الأسرة المصرية القديمة ، والثرية والوسطى منها بخاصة ، على شىء من اليسر وحب المرح ، دون روح التزمت أو القتامة .

* * *

الفصل الثامن

قيم الأمومة والأبوة وآداب البنوة فى الفن والأدب

زكى روح السماحة فى حياة الأسرة المصرية القديمة ما تقدم الاستشهاد به من توازن مقبول لمكانة الزوجين ، وتقارب معقول فى معاملة ما يرزقان به من بنين وبنات . ولم تكن تعاليم الحكماء وصيغ عقود الزواج ومدلولات أسماء المواليد هى المعبرة وحدها عن نماذج هذا التوازن والتقارب وإنما عبرت عنها كذلك بعض الفنون التصويرية والتشكيلية المصرية القديمة ، أو هى بمعنى أدق عبرت عن أفضل ما كانت عليه ، أو ما كان ينبغى أن تكون عليه .

وجنباً إلى جنب مع التصوير والتمثيل الفردى لكل من الرجال والنساء على حدة ، أخرج الفن المصرى القديم مجاميع تشكيلية وتصويرية كثيرة مترابطة لأزواج وزوجات وبنين وبنات .

وظلت صورة الرجل فى كل لوحة وفى كل مجموعة تماثيل هى العنصر المتميز على ما عداه من حيث مكانه وحجمه ومظاهر وقاره .

وتظهر الزوجة عادة واقفة أو جالسة بجانب زوجها بحيث يقل ارتفاع قامتها بعض الشىء عن ارتفاع قامته اعترافاً بواقع الحال بينهما . ويكون للزوجة

وحدها أن تشارك زوجها على مائدة قربانه (إلا فى حالات نادرة) . وتلون بشرة الرجل عادة بلون برونزى يميل إلى الحمرة ، بينما تلون بشرة المرأة بلون فاتح يضرب إلى الصفرة ، تبعاً لطول تواجدها بمنزلها ، وكثرة تعرضه لحرارة الشمس وتقلبات الطقس فى مجالات عمله . ويظهر الرجل يمد رجله اليسرى عادة إلى الأمام رمزاً إلى سعيه ونشاطه وتقدمه فى حياته ، بينما تظهر المرأة فى أغلب أحوالها بساقين متجاورتين تعبيراً عن حيائها وتأكيداً لاستقرار وضعها ، كما تصور بكفين مبسوطتين مرسلتين إشارة إلى دعة حياتها وانبساطها . وإذا رفعت إحدى يديها وضعتها على صدرها حياء وخفراً ، أو عبرت بها عن عاطفتها نحو زوجها ، كأن تطوق بها كتفه أو خصره أو تلمس بها ذراعه ، تدليلاً على حبها له وارتباطها به . وقد تظهر الزوجة مع تمثال زوجها جاثية إلى جوار ساقه ، ليس للتقليل من شأنها ، ولكن لتعبر عن شدة إكبارها له واعتمادها عليه ولتترك لبقية تمثاله سبيل الوضوح الكامل . ولم يكن الزوج أقل رغبة عن الزوجة فى التعبير عما يكنه لها من حب وتعاطف ، فى بعض الأحوال على أقل تقدير ، لولا تقيده وتقيد المجتمع والفن معه بتقاليد السلوك المتحفظ التى اكتفت بأن أباحت أن يلمس كف الزوج كف زوجته على استحياء ، وتمثيله أو تصويره معها يدا بيد دليلاً على الحب والترابط الأبدى بينهما . وقليلاً ما يظهر يطوقها بساعده كما تطوقه بذراعها .

وجرت العادة على أنه كلما ظهر الأب المصرى مع بنيه وبناته فى منظر ما أو فى مجموعة ما أن يذكر كتابة أنهم (جميعاً) أبناؤه وأحبته . وعلى نحو ما كان يسجل مع اسم كل ولد منهم على حدة أنه «ولده وحبيبه» ، كان يسجل مع كل بنت منهم أيضاً أنها «بنته وحبيبته» . وهكذا بطبيعة الحال كان شأن الأم حين تصور فتاتها إلى جوارها ، وتؤكد دائماً على أنها «بنتها حبيبتها ، أو حبيبة أمها » . ويمكن أن تقرن هذه الظواهر بظواهر أخرى نستشهد بها بعد قليل عن العدالة النسبية فى توريث الأبناء من الجنسين ، وفى تقبل المجتمع لأوجه أنشطة الأنثى المناسبة لها إلى جانب أنشطة الرجل .

***

الزوجة الأم

تمثلنا فيما تقدم بنماذج مما كان من البدهى أن تقوم به الزوجة المصرية القديمة من أدوار طبيعية فى حضانة ورعاية صغارها خلال سنى عمرهم المبكرة . ومشاركة زوجها فى تربيتهم خلال مراحل طفولتهم النامية ، على حين تسلم له زمام أمرهم وأمرها فى مراحل صباهم وفتوتهم ونضجهم .

وكان من صور رعاية الأم لولدها فى صباه أن تحمل غذاءه وشرابه إليه فى مدرسته كل ظهيرة . وقد دأبت زوجة آنى حكيم القرن السادس عشر ق . م . ، على ذلك فترة طويلة ، فظل زوجها يحمد لها صنيعها بأكثر مما كان يزكى صنيعه ، حتى نضج ولده ، فوعظه وقال له : «ضاعف الطعام الذى تخصصه لأمك ، وتحملها كما تحملتك ، فطالما حملت عبئك ولم تلقه علىّ . . . ، وإذ ولدت بعد أشهرك ظلت لصيقة بك وأسلمت لك ثديها طيلة ثلاثة أعوام ، وتحملت أذى قاذوراتك دون أنفة نفس قائلة ما هذا الذى أفعله (؟) ، إلى أن قال :

«وعندما التحقتَ بالمدرسة لتتعلم الكتابة فيها ، واظبت دونى على الذهاب إليك يومياً بالطعام والشراب من دارها . فإذا شببت وتزوجت واستقررت فى دارك ، ضع نصب عينيك كيف ولدتك أمك وكيف عملت على أن تربيك بكل سبيل . ولا تدعها تلومك وترفع كفيها ضارعة إلى الإله فيستجيب لدعاواها» .

وأوصى عنخ شا شنقى بالحفاظ على كرامة الزوجة الأم فى حضرة أبنائها بمثل قوله «لا تضحك ولدك وتبكيه على أمه ، تريد أن يعرف قيمة أبيه ، فما ولد فحل من فحل (من غير أم) » .

وجسد الأدب الدينى فضل الأم الأرمل فى حمل عبء تربية ولدها فى شخص الربة إيسة (أو إيزيس) . وكانت قد احتضنت وليدها حور إثر مقتل أبيه وتوارت به فى أحراج الدلتا عدة سنين ، أهلته فيها خفية لاسترجاع ملك

أبيه . كما نسبت إليها أسطورة متأخرة أنها ألحقت ولدها بمدرسة أتقن فيها أساليب الكتابة ومارس فيها فنون الرياضة والنزال أى حظى فيها بمقومات التربية والتعليم كاملة .

ومع هذا الدور المشرف لبعض الأمهات ، تخوفت قيم المجتمع عواقب لين الأم مع أبنائها ونتائج تدليلها لهم فى مراحل صباهم ، وأصرت على أن يتولى أبوهم أمرهم فى هذه المراحل دونها ، أو على الأقل يشرف عليها وعليهم فيها .

وهكذا نبه حكيم مصرى قديم إلى مغبة اللين بين ولده وبين أمه حين قال له «طوبى لمن كان جاداً (حتى) إزاء أمه ، فهو جدير بأن يتبعه الناس كافة» . وعنى بذلك أن من يعتاد الجدية فى بيته يسهل عليه أن يمارس السيادة خارجه ، وأن حياة اللين والتدليل فى البيت قد تفسد على الشاب شخصيته .

* * *

الأب رب الأسرة

غالت بعض مؤلفات الأجيال الماضية فى تصوير مدى سلطة الأمومة فى المجتمع المصرى القديم والقول برد النسب فيه إلى الأم وانتقال الملكية العقارية ووراثة العرش عن طريق خط الإناث دائماً . وهى مؤلفات وإن استرشدت فى حينها بشواهد فردية معينة إلا أن شواهدها محدودة العدد ولا تكاد تصمد أمام أدلة أخرى كثيرة ترجح غلبة سلطة الأبوة والاعتياد على رد النسب إلى الأب واعتباره العامل المؤثر فى شئون الأسرة والعمل والإدارة والمجتمع فى معظم عصور مصر القديمة .

ونكتفى هنا بنتائج دراسة أجريت على نحو ٩٢ سلسلة نسب مصرية من عصور الدولة القديمة وتبين أن ٤٤ نسباً منها ذكرت الأب والأم معاً ، وأن ٣٧ منها اكتفت بذكر الأب وحده ، وأن ١١ منها فحسب اكتفت بذكر الأم إذا ما كانت هذه الأم أميرة ملكية ورّثت ولدها لقباً نبيلاً ، أو كانت ثرية ورثته ممتلكات ذات قيمة كبيرة ، أو أن يكون الولد نفسه غير شرعى فلا ينسب لأب .

وتبدلت الأمور إلى حد ما فى نصوص عصر الانتقال الأول والدولة الوسطى حيث زاد ذكر الأم فى بعض النصوص بالنسبة لأبناء أصحاب النصب ، ربما لوضوح نسبتهم إلى أبيهم الذى صوروا معه ، أو أن يكونوا قد ولدوا له من أمهات مختلفات ، كما زاد ذكرها كذلك فى نصوص الأتباع والخدم نتيجة فيما يبدو لازدياد نسبة الأرقاء من البدو الأسيويين وأمثالهم من العاملين فى قصور الأثرياء فى ذلك الحين .

وعادت نصوص عصور الدولة الحديثة من تاريخ مصر القديمة إلى مجراها الطبيعى القديم وغلب فيها ذكر الأب والأم معاً أو ذكر الأب وحده . وإذا ذكرت الأم وحدها يكون من عوامل تخصيصها ما قدمناه عن عوامل ذكر الأم فى نصوص الدولة القديمة .

وقد يضاف إلى كل هذا أنه ما من وثيقة حكومية أو أدبية ذكـرت اسماً رئيسياً فيها ونسبته إلى أمه وحدها ، وإنما ظل النسب فيها يرد إلى الأب دائماً .

واطمأن حكماء مصر القديمة إلى تجارب الأب فى مجتمعه ، ورجولته فى داره ، وحكموا على مدى أثره فى أسرته من خلال سلوك ولده . وربطوا بينهما بمثل قولهم : «نهج الولد نهج والده» على نحو يقال الآن : «الولد سر أبيه» . وكانوا إذا رضوا عن فتى قالوا : «أنجبته روح أبيه» ، أو قالوا : «ما أصلح تهذيب أبيه» . وقالوا كذلك «الأم ولادة والشبيه ينتج الشبيه» .

وقدر الأب المصرى الواعى مسئوليته التربـوية ، وكـان إذا نجح فيهـا وأحب أن يترحم الناس عليه بعد وفاته ، قال : «أيها الناس ادعوا لفلان الذى كون أسرته وربى أولاده ، وفعل الحسنى على وجه الأرض» . ورتب المجتمع على الوالد واجبات إزاء أولاده صورها الحكيم بتاح حوتب متفرقة فى سياق تعاليمه وذكر منها أن عليه أن يلتمس كل شأن فاضل لولده المطيع ، وأن ترى عيناه وتسمع أذناه ما ينفع ابنه ، وأن يفيده بخبرته ، ويسعى إلى رفع مستواه كلما استطاع إلى ذلك من سبيل . وهى غايات سبق بحثها بإسهاب فى مؤلفنا عن «التربية والتعليم فى مصر القديمة» .

وفى مقابل مسئوليات الأب ، افترض المجتمع لـه حقوقـاً واسعة عـلى ولده ، أولاها الطاعة والاحترام ، ولم يأب عليه أن يقوّم سلوك ولده ويأخذه بالشدة إذا ضل ولم يعمل بنصائحه ، سواء بالضرب أو التأنيب أو التبرء منه جملة . وصور بتاح حوتب سلطة التقويم هذه فقال : «إذا ضل ولدك وخالف نهجك ولم ينفذ تعاليمك ، وساءت تصرفاته فى دارك ، وتحدى كل ما تقوله ، وتدنس فمه بقول قبيح ، فانبذه ؛ فإنه ليس ولدك ، ولم يولـد لك . . . ، انبذه ، واعتبره شخصاً أدانه الأرباب ولعن الإله خطاياه . . . » .

واستنكر حكيم آخر أمر الأب إذا تهاون فى إظهار حزمه عند الضرورة ، وأصر على أن الوالد الرحيم شىء ، والوالد اللين شىء آخر ، وأنه ما من ابن هلك من تأديب أبيه ، وأن العصا والحياء يقيان الابن شر الفساد . وتكررت

أمثال هذه المعانى فى سفر الأمثال من التوراة (١٣ : ٢٤ ، ٢٢ : ١٥ ، ٢٩ : ١٥) ، إلخ .

وصورت مجريات الأمور فى إحدى الأسر المصرية المتوسطة بضع رسائل من أوائل القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، كتبها حقا نخت إلى ولده الأكبر مرسو . ويتضح من هذه الرسائل مدى الإشراف الذى افترضه الآباء لأنفسهم على أولادهم ولو بلغوا سن العمل ، ومدى الفوارق الطبيعية فى معاملة الوالد لأبنائه وفق أعمارهم ، ومدى الحرص من رب الأسرة على جواريه ومقتنياته الخاصة .

ترك حقا نخت أولاده الخمسة فى طيبة ، وارتحل إلى منف ليباشر بعض أعماله فيها لفترات طال بعضها عن العام . وعهد إلى ولده البكر مرسو بأرضه ومخازن غلاله ومدخرات داره ، كما عهد إلى ولد آخر يصغره بخمس وثلاثين رأساً من الماشية شارك جاره فيها . وكتب حقا نخت إلى ولده الأكبر عدة رسائل من منف ، تظهر فيها شدته عليه وتحميله إياه مسئوليات الأسرة وأرضها كاملة . فكتب إليه قائلا : «إذا طغى الفيضان على أرضى فالويل لرجالى ولك ، ولن ألقى المسئولية إلا عليك» . وقال : «عليك أن تبذل الجهد فى أرضى ، واجتهد بأقصى ما تستطيع . اعزق الأرض وتدخل فى كل عمل» . وكان لا يفتأ يكرر عليه قوله : «إنك سعيد إذ أعولك ، ولماذا أعولك ؟ وإذا اجتهدت دعا الناس لك . وإذا لزمت الهدوء فإنه نعم العمل» .

وتخلى حقا نخت عن شدته بالنسبة إلى ولده الأصغر سنفرو ، فكتب عنه إلى أخيه يقول : «إذا لم يكن لسنفرو ما يكفيه معك فى الدار فلا تتوان عن إخبارى ، فقد بلغنى أنه غير راض . اعتن به كثيراً واكفل له مؤونته ، وأبلغه سلامى ألف مرة ، بل ألف ألف مرة . اعتن به وأرسله إلى بعد أن تحرث الأرض مباشرة» . ثم كتب عنه ثانية ، فقال : «إذا كان سنفرو يريد أن يعتنى بالماشية فدعه يفعل ، فهو لا يحب أن يجرى معك هنا وهناك فى حرث الأرض ، كما أنه لا يريد أن يأتى هنا ، وعليك أن تمتعه بكل ما يحب» .

وكان للرجل ولد يدعى « ساحتحور » اشترك مع خادمة تدعى سنن فى مشاكسة جارية أبيه ، فلم يزد حقاً نخت على أن صب غضبه على ولده الأكبر والخادمة معاً ، وتغاضى عن شقاوة الولد الصغير ، فقال لمرسو «اطرد الخادمة سنن من دارى فى الحال ، ولكن احرص على أن يتردد ساحتحور عليك يومياً . وإذا بقيت سنن فى الدار يوما واحداً وأساءت إلى جاريتى فأنت الملوم . وإلا فما الذى تستطيع جاريتى أن تفعله معكم وأنتم خمسة أولاد ؟ سلم على أمى ايبى ألف مرة ، بل ألف ألف مرة» .

وعاود حقا نخت الحديث عن جاريته فى خطاب آخر ، فقال لولده : «لاحظ أنها جاريتى ، وأنه ينبغى أن تعامل جارية الإنسان بالحسنى . . . ، وإلا فكيف أعيش معكم فى دار واحدة إن لم تحترموا جاريــة من أجل خاطرى ؟» (ويبدو أنه تزوج جاريته بعد أم أولاده فأصبحت إمرأة أب) .

ولم تختلف سلطة الأب فى الأسر الثرية عن سلطته فى الأسر المتوسطة ، إلا باختلاف الوسط واختلاف الظروف . فقد تعمد الملك تحوتمس الثالث على سبيل المثال ، أن ينشىء ولده البكر أمنحوتب (الثانى) تنشئة جادة صارمة ، وارتضى له ولم يزل صبياً صغيراً أن يفارق قصره فى طيبة ليقيم مع مربيه فى قصر الحكم بمدينة جرجا . ولما اشتد عوده أرسله إلى منف وألحقه بمعسكرها الكبير ليشاطر جنوده معيشتهم ويتم تربيته العسكرية بينهم . وعهد إليه بالإشراف على تربية خيوله الحربية وتدريبها وعلفها . ولم يعلن رضاه عنه إلا بعد أن تيقن أنه «استطاع أن يولى ظهره لشهوات الجسد وابتغى لنفسه حياة الجدية على الرغم من صغر سنه» على حد قوله .

على أنه أيا ما بلغ من سلطة الأب المصرى على أولاده ، فهى جد معقولة إذا قورنت بأمثالها فى مجتمعات قديمة أخرى . فقد أباح بعض الإغريق الأوائل للآباء حق الإحياء والإماتة على أبنائهم ، وبمعنى آخر أجاز بعضهم وأد الأطفال ، والبنات منهم بخاصة ، لمثل ما أخذت به بعض القبائل العربية فى العصر الجاهلى فيما بعد ، أى تحت وطأة الفقر ، وقلة احتمال البنات لمطالب

المجـرة والحرب فضـلاً عن التعرض للسبى والعـار . وأبـاح الأشـوريـون والرومان للأب حق رهن ولده وبيعه حين الضرورة (أو بيع مجهود عمله على أقل تقدير) .

وفى وجوب الاعتدال فى معاملة الأب لولده قال عنخ شا شنقى «لا تدع عمل الخادم لولدك إن استطعت أن تجعل خادماً يؤديه» . و «إياك أن تتسبب فى أن يفقد ولدك دخله (أو استقراره) » . و «لا تقل يا ولد لمن نضج ، ولا تتجاهل من جانبك من كبر» (ربما بما يعادل القول الدارج الحالى : إن كبر ابنك خاويه) .

* * *

صور من أدب الأبناء
(فى المثل العليا والواقع)

نظم الحكماء المصريون تعاليمهم بما يتفق ومطالب مجتمعهم والروح العامة التى سرت بين طبقاته . فوافقوا الآباء على ما افترضوه لأنفسهم من حقوق الطاعة والإشراف على أبنائهم وأكدوها لهم . وقالوا معهم بأنه «ما من مولود يبلغ الحكمة من تلقاء نفسه» .

ولكنهم آثروا سمة التوسط فى تعاليمهم ، واستحبوا من الأب أن يشفع أمره ونهيه بوسائل الإقناع ما استطاع . ونبهوا الابن إلى أن فضيلته تعود بالنفع عليه وحده ، وأن خير ما يمكن أن يرثه عن أبيه هو توجيهه إلى تحرى الصدق والعدالة . ودعوه إلى أن يجد نحو الكمال من أجل نفسه ومن أجل الناس ، بشروط رئيسية هى أن يرضى بما قدر له ، وأن يتجاوب مع الأوضاع القدسية التى ارتضاها الأرباب والفراعنة لمجتمعه ، وأن يراعى التوسط فى معاملة رئيسه ومرؤسيه ، ومعاملة نفسه ومطالب بدنه ، واختيار مناسبات صمته ومناسبات كلامه (ووردت هذه التعاليم والشرائط فى سياق فقرات ونصائح متنوعة عالجناها بتوسع فى كتابنا عن التربية والتعليم فى مصر القديمة) .

وكان من الطبيعى أن يتفاوت مدى رضى الأبناء بما دعاهم الآباء والحكماء إليه ، كما يتفاوت فى كل عصر ، فيكون منهم البار والعاق ، والصالح والطالح ، والمطيع والعاصى ، والواعى والغافل ، والذكى والأحمق .

وحرص الأبناء الكبار على أن يسجلوا اعترافهم بحقوق الأبوة وواجبات البنوة فى نصوصهم الخاصة . فكتب أحدهم فى سيرة حياته يقول : «كنت عكاز الشيخوخة فى يد أبى ما بقى على وجه الأرض . وكنت أروح وأغدو وفق أمره ، ولم أخالف أبداً ما قرره فمه ، ولم أتعود أن أتطلع إليه بنظرات كثيرة ، وكنت أطاطىء بوجهى حين يحدثنى» .

ولا يزال صدى بعض هذه الآداب باقياً فى المجتمع الريفى المصرى حتى

الآن ، وتمثله العادات التى تستحسن من الصغار عدم حضور مجالس الكبار ، وعدم الجلوس وهم وقوف ، وعدم إبداء الرأى المعارض فى مواجهتهم ، وعدم مجادلتهم فيما يرتأون .

وشاعت بين خيارهم عادة احترام الابن لأبيه ، وقيامه عند التحدث إليه ، ومخاطبته على استحياء ، وتوقير كبار السن بعامة .

وأشادت بمثل هذه السلوكيات قصص مصرية قديمة ، ورمز إليها بعض الفنانين كما رددها الأبناء أنفسهم فيما كانوا يسجلونه عن سير حياتهم من نصوص . واستحسنها المؤرخ هيرودوت فيما رواه عن الشباب المصرى فى مثل قوله «حين يلقى الشبان المسنين يتنحون جانباً ويفسحون لهم الطريق ، وحين يقترب منهم الكهول يقومون عن مقاعدهم» .

ومن أقدم القصص التى رمزت إلى آداب البنوة ، قصة تعرف باسم قصة الملك خوفو والسحرة (أو هى على الأصح قصة خوفو والكهنة المرتلين) . وهى قصة صور راويها الملك خوفو العظيم صاحب الهرم الأكبر أبا ودوداً كأخيار الآباء ، يجمع أولاده حوله ويسامرهم ويسمع من كل واحد منهم ما وسعه علمه من أخبار الماضى وأهل المعجزات فيه ، ولكنه ، أى الراوى ، تعمد فى الوقت نفسه أن يسجل أدب الأمراء فى حضرة أبيهم ، فقدم لحديث كل أمير منهم مع أبيه بقوله : « وعندئذ نهض الأمير (فلان) واقفاً ليتحدث ، ثم قال لأبيه إنى أقص على جلالتك كذا وكذا . . . » .

وسبق أن استشهدنا ببعض ما صوره الرسامون والمثالون المصريون من الأوضاع التى ارتضاها الآباء من أبنائهم فى المناسبات الخاصة ، فالولد غالباً ما يصور واقفاً مع أبويه الجالسين يقدم لهما قربان الآخرة ، أو يمسك بعصا أبيه باعتباره وريثه وسائراً على طريقه وخليفته فى بيته . والبنت تظهر معهما واقفة أو جاثية ، وقلما ظهرت جالسة . والولد والبنت إذا جلسا فهما يفترشان الحصير أو يجلسان على مقاعد منخفضة حين تناول الطعام بينما يجلس أبواهما على مقاعد مرتفعة . وقد يسر هذا أن بعض الوجبات والولائم كانت تقام دون بسط

الموائد المشتركة ويقدم الخدم فيها أصناف الطعام واحدا بعد آخر . وعلى أية حال فلم يكن من الضرورى أن يتقيد الأولاد والبنات بهذه الأوضاع دائماً ، وإنما هى فى الأغلب أوضاع تقليدية كما ذكرنا من قبل تعبر عن المبدء وتستحب فى مناسبات معينة .

غير أن قصر سلوك النشء المصرى القديم على هذه النواحى الطيبة من السلوك ، لا يمكن أن يصور الواقع كله ، فليس من شك فى أن الميل الطبيعى من الشبان إلى التحرر من كل سلطة تفرض عليهم ، كان له أثره فى تكييف سلوك بعضهم إزاء سلطة الآباء وتعاليم الحكماء . ولم تخل الآداب المصرية من الاعتراف بهذا الواقع ، فقال الحكيم بتاح حوتب لولده فى حديثه عن الآباء والأبناء : « . . . وكم من والد فى عناء ، وأم ولود تجد غيرها أهدأ بالا منها » . وقال عنخ شا شنقى «إنه تمثال من حجر ذلك الابن الغرير الذى لم يربه أبوه» ، و«تمثال حجر خير من ولد أحمق» .

وصورت مصادر تعليمية مصرية أخرى انصراف بعض الشبان إلى اللهو ومعاقرة الخمر وإيثار مجالس الغناء والنساء . ووصفت بعضهم بأنه قد يسهل ترويض الأسود وكبح جماح الخيول وتدريب العجماوات حتى ترقص وتطيع ، بينما لا يسهل ترويضهم هم أو كبح جماحهم أو تعويدهم على الطاعة . ووصفت بعضاً آخر بأنهم يتسكعون من حى إلى حى تسبقهم رائحة الخمر ، فإذا وصل أحدهم إلى حارته جمع البنات حوله وجلس يدق بيديه على بطنه كأنه يضرب على الطبل !

* * *

الفصل التاسع

من مثاليات الأسرة
فى التدين - وعدالة التوريث - والرفق بالأتباع

أسلفنا من مثاليات الحياة العائلية فى مصر القديمة ثلاث سمات وهى : سمة التوسط فى تقرير حقوق الرجل والمرأة . وسمة التوسط بين حدود الجدية والحشمة وحدود المرح والاستمتاع . وسمة الاستقرار المعيشى والعائلى وما ترتب عليه من رغبة أفراد الأسرة فى دوام ترابطهم فى الدنيا والآخرة ، وهو ترابط لابد أنهم اختلفوا فى تصوره وتصوير حدوده ، ولكن الفنانين حرصوا دائماً على تأكيده فى لوحاتهم التصويرية التى استشهدنا بمضامينها فى مناسبات سابقة حيث عملوا على أن يصوروا الأبوين متجاورين فى أغلب الأحوال ، وعلى أن يجمعوا أولادهما حولهما ، أو يصوروهم يفترشون الأرض تحت أقدامهما . وإذا خرج رب الأسرة الثرية إلى الاستمتاع بصيد الأسماك والطيور بقاربه الخفيف ، لا يصورونه يستأثر بمتعة الصيد وحده ، وإنما يصورون ولده فى صحبته يحمل له صيده أو يتمرن عليه ويساعده عليه . وتكون زوجته من خلفه تسنده بيديها أو تتساند عليه . وتركع ابنته لدى ساقيه تقطف زهور الماء لنفسها ولأبويها ، أو لعمل العطور منها ، أو تمسك بسوق البردى واللوتس

المتينة لتحفظ توازن القارب حين يندفع أبوها إلى الصيد بحربته أو عصاه المعقوفة . وقد يكون لمثل هذا التجمع فى مناظر الصيد رمز عقائدى إلى جانب مدلوله الاجتماعى الذى يرتجى له الدوام فى الدنيا والآخرة .

وللحياة العائلية فيما ارتضاه المجتمع المصرى من شئونها مثاليات أخرى من أهم سماتها ثلاث أيضاً ، وهى إيثار التدين ، وعدالة التوريث ، وروح السماحة فى معاملة الخدم والأتباع .

وينم عن غلبة التدين الأسرى فى مصر القديمة قرائن عدة ، منها ما أسلفناه عن شيوع الطابع الدينى فى أسماء المواليد ورغبة الوالدين فى التعبير بأسماء أطفالهم عن ارتباطهم بمعبوداتهم والتوكل عليها ، وابتغاء حمايتها ، والإقرار لها بالفضل والنعم .

ونم عليها كذلك أنه ما من عائلة من العائلات المصرية ذكرت أو صورت على الآثار ، إلا وانتسب فرد منها أو أكثر من فرد إلى خدمة المعابد والأرباب . وقد لا يبرأ هذا الانتساب من نوع ما من الادعاء فى بعض أحواله ، ولكنه ادعاء لا يخلو فى الوقت ذاته من دلالة على أن الأسرة المصرية كانت ترى مثلها الأعلى فى التدين ، وأن المجتمع كان يتطلب منها روح الإيمان بالأرباب وخدمة معابدها والمشاركة فى طقوسها (وفق العقائد الوضعية القديمة بطبيعة الحال) .

ولم يحرص رجال الأسرة وحدهم على التدين وخدمة معبوداتهم ، وإنما كان للنساء كذلك نصيبهن من معالم التقى والتدين وخدمة المعابد . وكانت بعض بيوت المتدينين تتضمن محاريب صغيرة للعبادة ، وصوراً لمعبودات قومها . ولعل ذلك كان يوحى إلى كبارهم وصغارهم بقربهم من ربهم ويوجه أنظارهم إلى ما يرضيه أو يغضبه .

وصورت نموذجاً من روح التدين فى العائلات البسيطة ، لوحة لرسام يدعى نبى أمون ، عاش فى فترة ما من القرن الحادى عشر ق . م . ، فى غرب طيبة . وقد مرض ولده لخطأ أتاه ، فاتجه بدعائه إلى ربه الأكبر آمون

يقول له «لئن شفيت لى ولدى لأقيمن تذكارا باسمك ، وأسجل لـك عليه نشيداً مكتوباً» .

فلما أجيب دعـاؤه ، أو فى بعهده ، وأقـام نصباً كبيـرا باسمـه وأولاده الأربعة ، وصورهم يصلون معه لآمون ، ويتـوجهون بـالثناء عـلى من حبا أسرتهم بفضله ، وسبح هو ربه قائلاً : «أنت رب السموات ، أنت من تجيب دعوة المسكين . دعوتك وأنا مهموم ، فلبيت الدعاء وعاونتنى» .

ودعا نبى أمون قومه إلى تقوى ربهم ، وأوصاهـم أن يقصوا قصته لكل ابن وابنة ، وللصغار والكبار . وروى لهم أنه لما دعا ربه ، وجده يلبى نداءه كأنه ريح الشمال يسبقه نسيم لطيف عليل . . ، وعقب على رضا ربه هذا بقوله : «وهكذا إن مال العبد إلى الشر ، فالرب ميال إلى الصفح . ومـا حدث أن قضى رب طيبة (آمون) يومه غضبانا ، فغضبه يتلاشى بعد برهة قصيرة» .

ولم يؤ د تدين الأسرة المصرية إلى إلزامها التزمت والجمود ، وإنما كان تدينا سمحاً لا يرى أهله مانعاً من أن يحيوا أعياده بالأناشيد والموسيقى بل والرقص أيضاً ، إلى جانب ما زاولوه من متع دنيوية بريئة ، ما استطاعوا سبيلاً إليها .

* * *

فى المواريث

لم تتضمن وثائق العصور المصرية المبكرة قوانين تشريعية صريحة لتقسيم الإرث ، وجرى العرف فى ذلك مجرى القانون . ودلت التطبيقات العملية فى شئون التوريث على أن كلا من الأبوين كان يوصى لأولاده بما يراه نافعاً لهم من أملاكه العقارية ، بنسب متقاربة ودون حرمان الفتاة أو غبنها . فإذا كان للزوج أبناء من زوجة متوفاة أو مطلقة ، احتفظ لهم بحكم العرف بحقهم فى ميراثه إن كانوا صغاراً ، أو عهد إليهم به إن بلغوا سن الرشد . وربما جرى الأمر على ذات المنوال بالنسبة للمنقولات أيضاً لاسيما لصالح البنات . وذهبت وثيقة متأخرة الزمن إلى ما هو أبعد من هذا ، إذ يفهم منها أنه إذا كان الأب قد قسم أملاكه بينهم قبل أن ينجب من زواجه الثانى جاز لهم أن يستأثروا بما ورثوه إن لم ينجح هو فى إعادة تقسيم الميراث مع إخوتهم برضاهم .

وإذا كان الميراث فى الأصل للأبناء ، إلا أن الوصايا والهبات امتدت به كذلك إلى الأخوة والأخوات فضلاً على الزوجات . ويبدو أن وفاة العاصب فى حياة أبويه لم تمنع من توريث ولده أحياناً .

وذكرت بعض الوثائق قيمة الثلث نصيباً للزوجة مع الاستفادة من الثلثين من منفعة الأموال المشتركة بينها وبين زوجها لمدى الحياة ، حين وفاة هذا الزوج . كما ذكرت أيلولة منفعة هذه الأموال المشتركة إلى الزوج فيما لو توفيت روجته قبله ، (أو الثلثين فيما لو سبق لها التصرف فى الثلث بهبة أو وصية) .

فإذا مات أحد الوالدين دون وصية ، واختصم الأبناء وآثروا تجزئة الميراث دون الإبقاء عليه فى وحدة مشتركة ، حرص الحكام والقضاة على ألا يحرموا ابنا منهم من نصيبه المقبول . وكثيراً ما ردد من ولوا القضاء والفصل فى المنازعات القول فى سياق سير حياتهم : «إنى لم أحكم بين أخين بما يحرم ابنا من ممتلكات أبيه» . أو ما يقول على لسان أحدهم إنه كان يجعل الأخ وإخوته يعودون إلى بيوتهم متصالحين بقرار فمه . وورد من نصائح عنخ شا شنقى قوله : «لا

تفضل أحد أبنائك على الآخر وأنت لا تدرى أيهم سوف يكون عطوفاً بك (أكثر من الآخر) . كما ورد من نصائح حكيم آخر قوله : « اعهد بممتلكاتك إلى أبنائك من قبل أن يبلغك (الأجل أو الهرم) » .

وعهدت الأسرة المصرية فى بعض عصورها بأوقافها العقاريـة ، وذات الصبغة الدينية أو الجنازية منها بخاصة ، إلى الإبن الأكبر فيها ، ثم جعلت له حق الإشراف على ميراثها كله فى عصور أخرى . ولكنها فى الحالتين لم تكن تسمح له بأن يتصرف فيـما يقع تحت إدارتـه من الميراث والأوقـاف لحسابـه الخاص ، ولا أن يحتجزه لأبنائه من صلبه دون غيرهم من أفراد العائلة ، أو يتنازل عنه لآخرين دون موافقتهم . واشترطت عليه أن يظل إشرافه عليها فيما يفيـد الأسرة أحيـاء وأمواتـا . ولم تنتقل ميـزة الابن الأكبر هـذه إلى الإبنـة الكبرى ، ربما نظراً لما تتطلبه إدارة أملاك وأوقاف الأسرة من جهد ، وحتى لا يتسرب شىء منها بصورة ما إلى زوجها . وترتب على هذه الأوضاع نوع من التكافل الأسرى والمسئولية الجماعية للأسرة فيما يختص بالأعين الموقوفة ذات الطابع الدينى وما تتطلبه أحياناً من التعـاقد مـع الكهنة وآخـرين . وهكذا حرص بعض الأبناء الكبار على أن يرددوا فى سير حياتهم التى نقشوهـا على جدران مقابرهـم ، قولهم : «أعددت ضريحى وأوقافه من ثروتى الخاصة وليس من ممتلكات أبى» . وعنوا بذلك أنهم كونوا ثرواتهم وبنوا ممتلكاتهم من كد يمينهم ولم يستغلوا فيها ميراث إخوتهم . وعلى وجه الإجمال فكثيراً ما قرن رضى الإخوة برضى الأبوين وحسن السمعة فيما سجله أتقياء المصريين عن أخذهم بمكارم الأخلاق . وكثيراً أيضاً ما ردد الواحد منهم عن صدق أو عن إدعاء أنه كان محبوباً من والده ، أثيراً لدى أمه ، حسن الخلق مع أخيه ، ودودا لأخته . وما كان ذلك ليتم لو صح إلا بشيوع التكافل الأسرى والتراضى بينهم .

ولا بأس من الاعتراف مع هذا بأوضاع أخرى أجازتها بعض العصور المصرية المتأخرة ورددتها وثيقة قانونية من القرن الثالث ق . م . ويحتمل منها حق الابن الأكبر فى وراثة مثلى نصيب أخيه ، واختياره نصيبه بنفسه ، وحقه فى وراثـة من يتوفى من إخـوته دون خلف . وحـددت الـوثيقـة نصيب البنت

بالثلث ، مع حق الابنة الكبرى فى وراثة أخواتها إذا توفين دون خلف . ونمت فى الـوقت ذاته عن مخـارج يمكن أن يتعلل بها بقيـة الأخوة لتعـديـل هـذه الأوضاع .

وعندما زار المؤرخ ديودور الصقلى مصـر أشاد بحكمـة مواريثهـا وقال عنها : «يلتزم الآباء المصريون بتربية أبنائهم جميعاً لزيادة تعداد السكان . فقد رأوا أن ذلك يزيد عمران البلاد والمدن ، ولم يتعودوا على أن يعتبروا أى ولد ابنا غير شرعى ، ولو كان ابن جارية مشتراة» . ومع هذه الإشادة الطيبة ، يبدو أن العصور المصرية الأولى لم تنص على حق الابن غير الشرعى فى الإرث ، وربما أبيح له فيما بعد بما هو أقل من نصيب الابن الشرعى ، أو إذا انعدم وجود هذا الابن الشرعى .

وعلى أية حال فلا يبعد أن آباء وأمهات وأخوة شذوا عن تقاليد الإرث السابقة إن قليلاً وإن كثيراً ، ولكن يكفى أن المجتمع كان يرتضى العدالة فيها على وجه العموم ، وأن العادة الغالبة فى الاحتفاظ للأولاد والبنات بحقوقهم فى الإرث كانت تساعد على وضوح ونمو شخصياتهم وفردياتهم الذاتية والمالية ، فى نطاق الأسرة ، وفى مجالات الحياة العامة ، إلى حد ما .

* * *

وتفاوت حق الزوجة المصرية القديمة فى أمور التملك وحرية التصـرف ووراثة الزوج والوصاية على الأبنـاء القصر ، اختـلافاً يسيـراً من عصر إلى عصر ، وإن صعب تحديد وتعليل مراحل هذا التفاوت بصورة قاطعة نظراً لقلة مصادره نسبياً حتى الآن . ومن أقدم ما يستشهد به فى هذا السياق ، نصوص «مثن» أحد كبار موظفى عهد الملك سنفرو فى عصر الأسـرة الرابعـة خلال أواسط القرن السابع والعشرين ق . م .

وقد جاء فيها أنه آلت إليه عن أمه السيدة نبسنة خمسون سثاة من الأرض (أى ما يربو على الثلاثين فداناً) ، بناء على وصية أعدتها لأبنائها ، من أجل أن تؤول أملاكها العقارية إلى ذمتهم . ولم يشرح مثن الوسائل التى امتلكت أمه

هذه الأرض بمقتضاها ، إن كانت قد ورثتها عن أحد أبويها ، أم حصلت عليها كهدية أو هبة من زوجها عند الاقتران بها ، أو بعد زواجه منها ، أم كانت قد اشترتها هى بنفسها ، أو اشترت بعضها من عائد استغلالها لبعضها الآخر ، كما لم يفصح عما أوصت أمه به لأبنائها الآخرين .

ولكن بحسب نصوص مثن مَا دلت عليه من أنها ، أى السيدة نبسنة ، تمتعت باكتمال الشخصية القانونية ، من حيث أهلية تملك العقار وحق التصرف فيه ، وإبرام الوصايا وإنجازها وفقاً لحريتها ومشيئتها الخاصة فى الحياة وبعد الممات ، وقد تكررت الشواهد فيما بعد على أمثالها . وتلك ميزة يمكن أن تقرن بما ورد فى عصور تالية واستشهدنا به (من قبل) من حق المرأة فى التبنى وامتلاك الأرقاء وتحريرهم ، والظهور فى عقود الزواج والإعاشة كشريك متعاقد ، شأنها فى ذلك شأن الرجال . ولم تكن أملاكها تحت وصاية زوجها ، ولم تختلط بالضرورة بأملاكه .

وإذا كانت أم مثن قد مارست مطلق التصرف فيما أوصت به لأبنائها من حر مالها ، وماثلتها بطبيعة الحال أمهات كثيرات كما ذكرنا ، فقد حرصت مصرية أخرى فى فترة من القرن الثانى عشر ق . م . على أن تؤكد ما لها من مطلق الرأى وحرية الاختيار فيما تمنعه وليس فقط فيما تمنحه أو تهبه مما لها من ذمة مالية متميزة عن دمة زوجها ولو فى نطاق أملاكهما المشتركة . وهكذا أثبتت فى بلاغ وصيتها ما تقول فيه : «ها أنا ذا قد طعنت فى السن وهم لا يعنون بى ، فمن بادر منهم ووضع يده فى يدى فسأعطيه من أملاكى ، ومن لا يفعل ذلك فلن أعطيه شيئاً . وهذه هى أسماء الأبناء الذين يشتركون فى الثلث الخاص بى ، وكذا ما يخصهم من تركة الثلثين الموروثة عن والدهم» . وكان فى كل هذا ما ميز وضع المرأة المصرية عما جرت عليه شعوب قديمة أخرى من تقييد حرية الأنثى فى التصرف العقارى ، إلا أن يكون تصرفها تحت ولاية وإجازة غيرها ، زوجاً كان أم أخاً ، أم ابنا أكبر .

وأبانت وثيقة قضائية مصرية من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، عن أنه كان بوسع المرأة من الورثة أن تدير الحقول الزراعية الموروثة أو جزءاً منها

برضى شركائها ، أو كوصية عليهم ، إلا إذا نازعها فى هذا الحق أحدهم رجلاً كان أو امرأة . وكان للأنثى حق التقاضى باسمها (إلا إذا أنابت عنها فيه ولدها الأكبر) ، وما يستتبع ذلك من مثولها أمام القضاء كمدعية وشاهدة ، واعتبارها مسئولة ومنفذة لأحكامه وخاضعة لعقوباته ، وذلك إلى جانب ما كان لها من أهلية إيجابية فى الحياة اليومية قد تستغلها أو لا تستغلها ، لعقد العقود والقروض وعمليات البيع والشراء والتأجير والضمان حين الضرورة دون الحاجة إلى ولاية وصى أو إنابة وسيط لازم .

ودلت بعض الوثائق المصرية القديمة بالتالى على أهلية الأم للولاية على أبنائها القصر ، ما لم يكن لها ولد بالغ يرعاها ويرعاهم وتترتب له عليهم ولاية أبيه وسلطاته . وإن دلت وثائق مصرية أخرى فى الوقت ذاته على اتجاه الزوج أحياناً إلى تعيين كفيل يعهد إليه برعاية أولاده الصغار ، إذا أحس بقرب أجله . أو تعيين وصى على تركته وأفراد أسرته يرعاها ويشرف عليهم ويعامل كلا منهم وفقاً لسنه .

على أنه يبدو أن مثل هذا الوصى الخارجى كان شأنه شأن ناظر الوقف فيما بعد ، قلما يحظى بثقة من يقعون تحت وصايته . ودلت على هذا شكايتان اعترض فى إحديهما «تاو» الابن الأكبر للمدعو «وسر» على وصاية سبك حوتب وطعن بالتزوير أمام القضاء فى صحة سند الوصاية نفسه ، وطالب بإسنادها إليه ، وأجابه القضاة إلى طلبه . وقدمت الشكوى الثانية زوجة إلى روح زوجها فى قبره وتضررت فيها من عدم وفاء الوصى بالتزامه لصالحها وصالح ابنتها .

وعلى أية حال فلم يحل اكتمال الأهلية القانونية للزوجة دون أن يلحق اسمها باسم زوجها فى الوثائق وأمام المحاكم فيقال عنها فلانة حرم فلان .

وليس من المستبعد رد بعض ما تميزت به المرأة المصرية القديمة نسبياً عمن عاصرنها من نساء المجتمعات المتحضرة الأخرى من أهلية الوجوب والأداء ، إلى الفطرة المصرية السليمة ونظرتها إلى المرأة أساساً كإنسان ، بكرا كانت أم زوجة ، أما كانت أم عاقراً . واعتبارها «ست» فى مقابل «سى» أى سيدة فى

مقابل رجل ، و «نبت بر» فى مقابل «نب» ، أى ربة بيت ، فى مقابـل ولى الأمر . وهى فطرة زكتها طبيعة تكـوين المجتمع المصـرى الزراعى القـديم المستقر الآمن الذى أتاح للمرأة أن تشارك بنصيبها الإيجابى فى عملية الإنتاج ، ما استطاعت أو ما دعتها الضـرورة . وأن تكون شـريكاً بـالتالى فى الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية التى اعتمـد نجاحهـا على أسـاس من قيم العدالـة المستقرة وإعطاء كل ذى حق حقه ، ولو من الناحية النظرية على أقل تقدير ، ودون استبعاد بعض نواحيها السلبية أحياناً .

بيد أنه إذا ما صحت أفضلية البيئات الزراعية حقاً بالنسبة للمرأة على ما عداها من البيئات الرعوية والصحراوية والجبلية القديمة التى تدنت فيها مكانة المرأة ، مثل البيئة الإغريقية أو العربية القديمة التى حدت من حق المرأة فى أمور التملك والتصـرف والإرث العقارى وإبـرام العقود وإدارة الأعمـال المهمة والمثول أمام القضاء ، إلا تحت وصاية أو كفالة الأب أو الأخ أو الزوج أو أقرب الأقرباء من الذكور ــ فإنه يتبقى للمرأة المصرية القديمة فى مجتمعها الزراعى والتكاملى النشأة ما تميزت به كذلك عن أفضل مثيلاتها فى مجتمعات زراعية عريقة أخرى كرمت المرأة فعلاً وعنيت بحقوقها ، ومنهـا المجتمع العـراقى القديم على وجه أخص .

فعلى الرغم مما وفرته التشريعات البابلية العراقية للمرأة من أهلية البيع والشـراء والادعاء والشهـادة وإبرام الاتفـاقيات شـأنها فى ذلك شـأن المـرأة المصرية ، لاسيما حين يكون الطرف الآخر امرأة ، إلا أن الولاية عليها كانت تنتقل كاملة من أبيها أو أخيها قبل الزواج إلى زوجها بعده . ولم يكن لها حق فى اختيار الزوج أو حق تطليقها منه . ولم يكن لها حين وقوع الطلاق باختيـار الزوج إلا استرداد بائنتها وتعويض مناسب وما تربى به أولادها الصغار ، دون أن يكون لها أن ترث أباها أو زوجها فى أملاك عقارية (إلا إذا كانت من كبرى الكاهنات) . وإذا ورثت أحدهما بحكم وضعها الخاص استغلت منه ما يعادل ثلث نصيب أخيها دون أن يحق لها بيعه أو استخدامه فى سداد ديون شخص آخر ، وبقيت الرقبة لإخوتها ليرثوها إن لم يكن لها أبناء ذكور .

معاملة الأتباع

استحبت أغلب الأسر المصرية الثرية سماحة المعاملة مع أتباعها وخدمها . وربما كان لذلك بعض الأثر المحمود فى تهذيب حواشى أبنائها ورقة طباعهم نسبياً . فكان من ملاك الأراضى من يسمح لرقيقه بالاشتغال عند غيره لفترات معينة ، ويسمح لهم بأن يتسلموا أجورهم منه بأنفسهم ، أو يشترط لهم على المستأجر ألا يرغمهم على العمل فى يوم يشتد حره . ولم يأب بعض المصريين إقرار حق الأجراء وأوليائهم الأقربين فى الاحتجاج على تكليفهم بغير ما استؤجروا له .

وأوصى الحكيم عنخ شا شنقى ولده فيما أوصاه بقوله : «اسمح لمن عمل ما عهد به إليه بأن يرفع صوته» . ولو أنه لم يبرأ من إيثار النفع المتبادل حين قال «اعط الشغال رغيفاً تأخذ رغيفين من (شغل) كتفيه» . وقال آخر «إذا عبرت (النهر) بسفينة فأدّ لها أجرها وزيادة . وكافىء الصانع يخدمك» .

ودلت بعض يوميات العمل والعمال على أن العاملة كانت تتقاضى أحياناً نفس أجر العامل ، وتنتفع بمثل إجازاته فى الأعياد والضرورات والأمراض ، وتزيد عنه بأعذارها الأنثوية .

ولسنا نشك مرة أخرى فى أن أسراً وجماعات ثرية تجاهلت مثل هذه السماحة ، وربما انقلبت منها أحياناً إلى ضدها . وكثيرة هى المناظر القديمة التى صورت الخدم والأتباع والأجراء بل والمستأجرين أحياناً ممددين أرضاً يضربون بالعصى . ولكن يكفى أن تقاليد المجتمع المصرى لم تتمسك بالفواصل الحادة التى فرضتها بعض المجتمعات القديمة الأخرى فيما بين مواطنيها وبين أرقائها ، فلم تذهب مذهب الإغريق والرومان مثلاً فى اعتبار الرقيق متاعاً يحل لصاحبه تدميره وإهلاكه .

وليس أدل على حسن الأثر الذى كان يمكن أن تتركه سماحة الأسرة

الخيرة مع أتباعها فى نفوس أبنائها أحياناً ، من أن نجد شابا مصرياً يراسل أباه قائلاً له : «أرجو أن تكتب إلى عن حالك وأحوال خدمك وكل ما هم فيه ، لأن قلبى مشتاق إليهم كثيراً جدا» . وجريا على الرغبة فى حفظ كرامة التابع ، قال عنخ شا شنقى لولده : «لا تقترب من زوجة تابعك» .

وتعدى رفق الأوساط المثقفة بالأتباع إلى الرفق بالحيوانات الأليفة أحياناً ، بحيث خصص أحد أطباء الدولة الوسطى مخطوطاً طبياً لعلاج عيون وأسنان العجول والكلاب . وأطلق بعض المترفين أسماء تدليل على كلابهم مثل نب أى السيد على نحو مايطلق عليه الآن اسم ركس أى ملك ، أو لورد . وبلغ من تأثير مثل هذا الرفق على أخلاق بعض الأولاد ، أن روت قصة مصرية عن غلام فيها أن العرافات أنذرنه بأنه سوف يموت مقتولاً ، وأن مقتله قد يتأتى بسبب كلبه ، إن لم يكن من جراء تمساح أو ثعبان . فلما أرادت خطيبته أن تقتل الكلب إبعاداً لما يحتمل أن يصيبه من شر ، أبى واستمسك به ، وترك أمره وأمر كلبه للأقدار ، وقال : «بحق الإله رع لن أدع أحداً يقتل كلبى الذى ربيته منذ أن كان جروا» . وكما كان المصرى التقى يذكر فى دفاعه الإنكارى أمام قضاة الآخرة أنه لم يلحق ضررا بإنسان ، كان يضيف كذلك أحياناً أنه لم يعمل على إيذاء حيوان .

وكان من الطبيعى أن يختلف حال الأسر الفقيرة عن حال الأسر الغنية فيما ترتب على الأوضاع والقيم السابقة من تأثير فى نفسيات الأبناء وتكييف أخلاقياتهم . ففى الأسر الفقيرة لم يكن الأبناء يتأثرون بمعاملة أسرهم لأتباعها وإنما هم يتأثرون بمعاملة السادة لأبويهم . وفيها لم يكن الفقر يحرم الولدان من بعض متع الحياة وحدها ، وإنما كان يحرمهم كذلك من بعض الصحة أحياناً . وفيها كان الولدان يشاركون آباءهم فيما يضطربون فيه من مشقات الدنيا منذ سنيهم المبكرة . فيكدحون معهم فى سبيل تحصيل الكفاف ، ويخرجون معهم إلى أعمال الفلاحة والصناعة بنين وبنات . وإذا تخطوا طفولتهم المبكرة وفارقوا مرحها البرىء المحدود ، وودعوا اللهو بعرائس الطمى والقش والبوص واللعب فى الأزقة ، كانوا ينصرفون كأمثالهم حتى الآن إلى ما يناسبهم من

أعمال الزراعة ، كاقتلاع الحشائش ، وبذر الحب ، وجمع سنابل الغلال ، والتقاط ما يتساقط منها حين الحصاد ، وذود الطيور عن كروم العنب بالعصى الصغيرة والمقاليع ، سواء فى أراضى آبائهم الصغيرة المحدودة ، أم فى حقول أخرى يؤجرون على العمل فيها بأجر يسير . وأبناء الأحياء الشعبية فى المدن كانوا يتجهون إلى ما يشبه هذا الاتجاه ، فيعمل الأبناء غالباً صبياناً فى حرف آبائهم صناعاً كانوا أو صيادين أو بائعين (ولكن دون التزام مفروض باحتراف هذه المهن) . وقد تضطر بعض البنات الصغار أحياناً إلى العمل فى مصانع الغزل والنسيج والغسيل وخدمة البيوت تحت إشراف النسوة أو تحت إشراف الرجال . وغالباً ما صور هؤلاء وهؤلاء حفاة وشبه عراة إلا من التافه من الثياب .

ومن العجيب أنه على الرغم مما أحاط بأفراد الأسر المصرية الفقيرة من عنت الدنيا ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يستغلون بدنيا أكثر من غيرهم فى تنفيذ مشروعات الدولة وخدمة الحكام ، إلا أن تكوينهم الوجدانى لم يختلف كثيراً عن التكوين الوجدانى المعتدل لمواطنيهم من الطبقتين العليا والوسطى . فالنفسية البسيطة الراضية والروح الصبور القانعة ، والتدين الفطرى السمح ، والطباع الفكهة المرحة ، كل أولئك كان يتمثل فى كثير من جماهير الفلاحين والرعاة والصناع والعمال على نحو ما تمثل فى كثير ممن كانوا يسودونهم ويستأجرونهم من الطبقات الأخرى .

وتوحى النصوص الباقية من مواويل الكادحين على الأرض وهم يحرثونها ويبذرون الحبوب فيها ، وينقلون غلالها إلى الصوامع ، ويستقبلون تباشير الفيضان عليها ، كما توحى أهازيج الرعاة وحاملى المحفات ، بأن الله شاء أن يعوضهم بروحهم الصبورة المتفائلة عن بعض ما حرموه من نعيم الدنيا ومتاعها .

فقد يعمل المزارعون فى حرث الأرض منذ صباحهم الباكر ، فيهونون على أنفسهم مشقة العمل بروح راضية ، ويرددون ما معناه :

الـيـــوم زيـــن والأبـــدان ريّـانــة
والـشـيــران تجــر والسمــا علــى هــوانــا

وينقل آخرون غرائر الغـلال ، ويطول يـومهم ، فيضمنون شكـايتهم الخفية من مشقة العمل المتواصل فى موال يخففون به كربهم ، ويقولون فيه ما يعنى :

نقضــى النهــار ننقــل الـقــمــح والـغـلّــة
والـشــون فــاضــت والأكــوام بــتــدّلــى
ووســقــنــا المــراكــب وفــاضــت الغلــة من بــرّة
والريس يســوق وقلوبنــا مـعــادن مــا تـتـبــرّى

ويخرج أربعة من الخدم يحملون سيدهم فى محفة فيخدعون أنفسهم عن ثقل ما حملوا به ، أو يتهكمون على ثقل ما حملوا به ، ويقولون : «ياما أحلاها وهى ملآنة عنها وهى فارغة» . ويشقى بعض الأتباع فى إعداد أمتعة سيدهم ووسائل متعته ، فيخدعون أنفسهم عن حرمانهم من أمثالها ، بادعاء المودة بينهم وبين سيدهم ، بحيث يتحدثون عنه باسم تدليل ، كأنما ارتفعت الكلفة بينه وبينهم ، فيتحدث أتباع الوزير بتاح حوتب عنه باسم إيبى ، ويتحدث أتباع آخرون عن سيدهم الوزير كا يجمنى باسم ميمى ، ويتحدث أتباع نفر سشم بتاح عنه باسم شيشى .

وكما سلف القول يمكن أن ترد الروح الراضية القانعة السمحة لغالبية جماهير الشعب المصرى إلى عوامل عدة ، ومنها : أنهم تطبعوا تلقائياً ، وربما عن غير وعى ، بطابع بيئتهم الهادئة المترامية التى قلت فيها مظاهر الصخب العنيف والتقلب الشديد . وأنه شاع فى مجتمعهم وازع دينى أو إنسانى وأخلاقى أصيل دفع ذوى القلوب الرحيمة من السادة والرؤساء إلى التخفيف عن مرؤسيهم وأجرائهم والرأفة بهم ، إما طمعاً فى حسن السمعة ، أو رغبة فى رضى الأرباب وأملاً فى جزاء الآخرة . وفى نموذج من نماذج التعبير عن هذا

الوازع الإنسانى كتب رجل أشرف على ضيعة أخيه عشرين عاماً ، يقول : «لم أوذ شخصاً فيها لأنه وقع تحت طائلتى ، ولم أستعبد واحداً من أهلها ، وكنت إذا جادلت أحدهم أرضيته . ولم يحدث إطلاقاً أن نمت غاضباً على فرد منهم» .

وكثيراً ما ردد ولاة الأقاليم فى نصوصهم ما يفيد اعترافهم بمسئولياتهم إزاء فقراء الناس ووجوب معاونتهم على تحمل نكبات الحياة ، وأن كلا منهم كان يعتبر نفسه أباً لليتيم وزوجاً للأرمل وعائلاً لمن لا عائل له .

وفى سنوات القحط الطارئة كثيراً ما عبر خيار حكام الأقاليم عن مسئولياتهم وكرمهم بما يقول : «وعندما شحت أقوات البلاد أغدقت على بلدى أرادب وكيلات من الغلال . وسمحت لكل مواطن أن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته . وأعطيت منها الأرمل وولدها» . أو ما يقول : «وعندما تعاقبت سنوات المجاعة . . . ، منحت الأرملة كما منحت ذات البعل . ولم أميز كبيرا على صغير فيما أعطيته» . وقد يضمن كل مسئول دفاعه الإنكارى عن نفسه فى مواجهة حساب الآخرة ما يقول فيه «لم أدع أحداً يتضور جوعاً» ، و «لم أتسبب فى بكاء إنسان» ، «ولم أسبب التعاسة لأى إنسان» ، «ولم أبلغ ضد خادم سرا إلى سيده» ، «ولم أحرض خادما على عصيان مولاه» . وقد يقول فى نصوص مقبرته «فعلت ما يحبه الناس ويرضى الأرباب» ، «وكنت محسناً لأهل ضيعتى» ، «ولم ألفظ بنميمة لدى صاحب سلطان ضد أى إنسان» . وأياما كان فى أمثال هذه التعبيرات من مغالاة ، إلا أنها لا تخلو فى الوقت نفسه من دلالة على رغبة الكبراء فى الظهور بمظهر الآخذين بتعاليم الدين والحريصين على اكتساب السمعة الطيبة بين المواطنين .

وشاع إلى جانب هذا الوازع الدينى وازع اجتماعى كريم استحبه بعض الحكماء والرؤساء وأرادوا أن يخففوا به مرارة الحقد والحرمان فى نفوس الفقراء ، ويتجنبوا به ما يتركه الحقد عادة من التواء فى الطبع والوجدان . وصور بتاح حوتب لولده حكمة هذا الوازع ، فى صورة عملية مقنعة ، فقال له : «إرض العوام فإن النعم لا تكمل من دونهم» وهو قول يقرن بما تقدم الاستشهاد به من أقوال الحكيم عنخ شا شنقى وغيره .

ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال مثالية أغنياء المصريين القدماء المطلقة فى معاملة الأجراء والأتباع ، وإنما هى مثالية نسبية كانت مستحبة فحسب ، قد يتعمدها بعض السراة عن إخلاص ، بينما يتغافل عنها بعض آخر ، وقد يتظاهر بها بعض ثالث دون اقتناع .

* * *

ومن وجه آخر سرت بين أخيار الكادحين وبعضهم البعض روح متوارثة أو مكتسبة من التراحم الفئوى والتعاطف الفطرى ، يسرت عليهم مشقات الحياة وأضفت عليهم حظاً لا بأس به من القناعة وهدوء النفس وسلامة الوجدان . وعبرت النصوص المصرية القديمة عن هذه الروح بألفاظ اعتاد أخيار الأتباع والصناع أن ينادوا بعضهم بعضا بها . فالجزار الطيب إذا طلب مساعدة زميله فى شد ساق الذبيحة ، قال له «خد عليك يا خويا» ، والنساج الطيب إذا نادى زميلته قال لها «أسرعى يا أختى» ، وذلك فيما يبدو نوع من أخوة العمل وأخوة الانسانية التى شجعتها المسيحية فيما بعد وزكاها الإسلام . وإذا تخلى أحدهم عن ألفاظ الأخوة نادى زميله بقوله «ياللى معايا» ، و «يا زميلى» ــ وهذه يتخاطب بها الطفل وزميله ، وكذا الجزار والراعى والمزارع والصانع ، بعضهم مع بعض .

وإذا فرغ أحدهم من عمله شجعه زميله الودود بقوله «شىء بديع للغاية» . وإذا وعده أن يشاركه العمل قال له «سأعمل ما يرضيك» . ولاتزال هذه الروح الودودة قائمة إلى الآن إلى حد ما .

ولا يبعد أن حياة أولئك الكادحين فى أسرهم ومع أولادهم كانت على نحو مشابه من البساطة والتعاطف فى غالب أمرها ، يقل فيها الكبت والتعقيد ، وإن لم تخل من التقشف والحرمان .

* * *

الفصل العاشر

المرأة فى المجتمع والحياة العامة

لم يأب المجتمع المصرى القديم أن يتيح للأنثى ممارسة نشاطها المناسب لها فى بيئتها الخاصة وفى مجريات بعض الشئون المدنية والدينية فى الحياة العامة ، طالما تمتعت بالكفاية الشخصية وظفرت من الثقافة بنصيب يناسب عصرها وتقاليده .

وعلى الرغم من أن مجالات التعليم الكتابى أو المدرسى كانت من شأن الأولاد أساساً ، إلا أنه تبين من وثائق فردية قديمة متباعدة أن قلة من المصريات تعلمن الكتابة والقراءة (فى بيوتهن) وانتفعن بهما ، كما تذوقن الأدب وتراسلن به . فكانت منهن بضعة قليلة حملن لقب الكاتبة (ربما عن وراثة لآبائهن فى المهنة ذاتها) ، ومن تولت كتابة رسائل الملكة ، ومن شاركت زوجها الأمير فى كتاباته وقراءاته وإن اعترفت بأنها بقيت دونه فى تجويد الخط وإتقان الأسلوب .

ومنهن من تولت تثقيف فتية من الأجانب باسم البلاط الملكى فى عصر الرعامسة ، ومن تلقبت بلقب رئيسة الحكيمات . ومن نسب إليها الاشتراك فى بعض شئون القضاء وبعض شئون الوزارة (حينما اهتزت أركان الملكية

المجتمع فى أواخر عصور الدولة القديمة) . وثمة احتمال بقيام دار وثائق فى دندرة خلال عصر الأسرة الحادية عشرة غذت محتوياتها سيدة كبيرة مثقفة ثم رعتها ابنتها من بعدها ، وخصصت لها مشرفاً ينظمها ويصون ذخائرها .

وتضمنت بعض مخطوطات عصر الرعامسة رسائل إنشائية لإناث من أواسط الناس كن يتبادلنها مع بعضهن البعض ، ويفضن فى سياقها فى ترديد الأمانى وأساليب الوصف . وزارت إحداهن مدينة منف ذات مرة ، وراسلت صديقة لها تسكن فى مدينة طيبة (الأقصر) . فكتبت لها بأسلوب طريف عن روعة هذه المدينة (منف) ، وشبهتها بغادة شقراء ، تكنية عن أسوارها الشهباء ومبانيها البيض . ووصفت لها غرائدها الناعمات وما يؤثرنه من أكاليل الزهور وغصون النبات . وصورت لها رخاء المدينة ، ودللت على رقى الحياة فيها بأن البدوى الأشعث إذا دخلها تحول إلى مدنى مرفه ، يتضمخ بالزيوت العطرة ويتجمل بالزهور . ثم وصفت لها مواكب الجند وهم يشقون طرقات المدينة بين التهليل ودقات الطبول .

ونسب المتدينون المصريون مخايل العلم إلى بعض معبوداتهم الإناث . فاعتبروا المعبودة «سشات» راعية للكتابة والكتاب ، وتناقلوا أنها كانت أول من حسب وخط بالقلم (إلى جانب راعى العلم والكتابة تحوتى) . كما نسبوا إلى المعبودة «إيسة» شيئا من العلم بالكتابة والحساب أيضاً ، وذكروا أنها قالت «أرشدنى أبى إلى سبل المعرفة» ، وأنها اتفقت معه فيما بعد على ابتداع خط مختصر جديد (وهو الخط الديموطى) . وجسد رمز العدالة والحق فى مصر القديمة على هيئة معبودة أنثى وهى «ماعت» ، (وبقى الرمز إلى العدالة بأنثى كذلك فى العصر الحديث ربما على أساس تأنيث اسمها على الأقل فى اللغات اللاتينية والفرنسية والألمانية والعربية أيضاً) . وفى أحسن حالاتها اعتبرت «ماعت» قيمة خلقية عليا ترتبط بالفضيلة والاستقامة والإنصاف والذمة والضمير ، والتوازن العالمى ، وتنتسب إلى الإله الأكبر بذاته ، وعليها يحيا هو والأرباب وخيار الناس ، وبها ينعمون ويشبعون ، وبفضلها يستقر نظام الكون والمجتمع .

وأسهمت بعض كبريات الأميرات المصريات فى مجريات الحكم والسياسة فنجحن حينا وفشلن أحياناً . وبلغت العرش ، أوعلى الأقل ورثت العرش ، منهن خمس أميرات ، وهن : خنت كاوس فى نهاية الأسرة الرابعة ، ونيت إقرتى فى نهاية الأسرة السادسة ، وسوبك نفرو رع فى نهاية الأسرة الثانية عشرة ، ثم حاتشبسوت فى منتصف الأسرة الثامنة عشرة ، وتاوسرة فى نهاية الأسرة العشرين . فضلاً على كليو باترة الشهيرة وإن تكن متأخرة العهد بطلمية الأصل . وفشلت أغلب تجارب هاته الأميرات أو الملكات فى سياسة أمور الدولة ، فيما خلا الملكة حاتشبسوت التى أحبت تصويرها فى سمات الرجال واتصفت بعزائمهم ، وسيطرت على العرش اثنين وعشرين عاماً ، تسعة مشتركة وثلاثة عشر منفردة .

واشتهرت إلى جانب هاته الوارثات للعرش أميرات أخريات عظيمات باشرن السلطة من وراء ستار إلى جانب أزواجهن من كبار الملوك .

وقد بدأن بنماذج شهيرة متفرقة منذ عصر الأسرة الأولى التى برزت فيها كل من الملكتين «نيت حوتب» ، و «مريت نيت» . وكانتا من أميرات الدلتا ودعت دواعى حسن السياسة زوجيهما إلى السماح لهما بمكانة خاصة . وتكررت مثيلاتهما من حين إلى آخر .

ومراعاة للإيجاز يكفى التنويه هنا بجدة الأسرة الثامنة عشرة «تتى شرى» التى ولدت من أبوين من غير فئة الأمراء أو الملوك ولكنها نعتت فى نصوص حفيدها الملك أحمس بلقب العالمة أو العارفة تقديراً لحصافة رأيها وطول خبرتها . وشابهتها ابنتها أو زوجة ابنها الملكة «إياح حوتب» (وحرفيا إعح حتب) التى ساعدت على تحقيق وحدة الصف الداخلى وجمع كلمة الجيش بعد وفاة ولدها كامس وعند انتقال العرش إلى أخيه أحمس إبان مراحل الكفاح الوطنى لإجلاء الهكسوس عن أرض مصر . وقد بلغ من شهرتها الخارجية أن جاملتها بعض جزر البحر المتوسط ومنها جزيرة كريت ، أو جاملت ابنها الملك أحمس فى شخصها ، وخلعت عليها اللقب التشريفى «سيدة الجزر» . وماثلتها فى علو المكانة إلى حد ما الملكة «أحمس نفرتارى» التى رأى أهل طيبة فى مناقبها

ومناقب ولدها الملك أمنحوتب الأول ما دعاهم إلى تقديسهما بعد وفاتهما واعتبارهما من الأولياء . وتلتهن بعد عدة أجيال الملكة «تى» التى أسلفنا من أمرها اختيار الملك أمنحوتب الثالث لها من أسرة مصريةخارج أسرته المالكة لتكون السيدة الأولى فى قصره وفضلها على من سواها من زوجاته . وكان لها من قوة الشخصية ودلال الأنثى ما سلبت به لبه ، بل وراسلها ملوك الشرق وأمراؤه المعاصرون لها وتملقوها تقرباً إلى شخصها وإلى شخص زوجها . ثم الملكة نفرتيتى رائعة الجمال زوجة أخناتون التى شاركته حياة التفلسف وناصرت معه ديانة آتون ودعوة الوحدانية . ومن قبل ذلك نمت بعض النصوص والملابسات على احتمال قيام بعض الملكات بالوصاية على أبنائهن الملوك الذين ورثوا العرش وهم فى سن الطفولة ، ومنهن أم الملك بيبى الثانى فى فترة من القرن ٢٣ ق . م . وشابهتها جزئياً فيها بعد سيدة من القرن ٢١ ق . م . تولت الوصاية على ولدها أو حفيدها الصغير فى حكم إقليم «أسيوط» .

* * *

وإذا تجاوزنا عن تتبع أحوال من ألزمتهن ضرورات الحياة القديمة من النساء الفقيرات بالسعى فى سبيل تحصيل الرزق ومعاونة الأب أو الزوج ، فى الأسواق المحلية وفى أعمال الزراعة والصناعة الخفيفة ، وفى الخدمة ببيوت الأثرياء ، أو فى العمل قابلات ومرضعات وحاضنات ومربيات بل ونادبات فى الجنائز وحاملات للقرابين ، فثمة ما يذكر لبعض نساء الطبقات الثرية والوسطى فى مجالات الحياة المدنية والدينية المناسبة لظروفهن . فقد شاركت بعضهن أزواجهن فى الإشراف على أعمالهم الخاصة . وتولت كبرياتهن مناصب شرفية وعملية فى القصور الملكية ، واتخذن ألقاب الوصيفات ومعارف الملوك ، والمشرفات على أمور زينتهم وزينة الملكات .

ويبدو أن المبرزات من حائكات الثياب ومرجلات الشعر والمشتغلات بفن التجميل اشتهرن كالعادة بحب التداخل فى الأسر الغنية والحرص على الاستفادة منها لصالح أنفسهن وصالح أبنائهن . وهى ظاهرة عبر عنها الحكيم

عنخ شاشنقى فى قوله مع شىء من التهكم « ليت لى أم ماشطة تحقق الخير من أجلى» .

وتفاخرت أغلب سيدات الطبقة الوسطى بالانتساب إلى كهانة المعابد وخدمتها والاشتراك فى محافلها وأعيادها الدينية ، باعتبارهن كاهنات أو منشدات وعازفات ومغنيات ، سواء عن هواية أو عن احتراف . وتوفر لبعض فرق المنشدات حينذاك صيت واسع ، لاسيما بالنسبة لفرق منشدات مدينتى منف وطيبة ، ومنشدات القصور الملكية . وتكفلت بضعة معاهد صغيرة بتعليم الفتيات الرقص الدينى والرقص التوقيعى ، وأشرف عليها أحيانا رجال متخصصون . ونسبت رعاية الفنون الجمالية والرقص والنغم إلى المعبودة حتحور ، كما نسبت رعاية الموسيقى إلى ولدها المقدس إحى .

ومن أرفع مناصب الكهنوت المصرى التى اختصت بها بعض الملكات وشهيرات الأميرات فى الدولة الحديثة والعصور المتأخرة منصب «حرم آمون المقدس» وقد بدأ منصبا تشريفيا ثم جمع بين الصبغة الدينية وبين النفوذ الإدارى الأعلى فى معبد الكرنك ومدينة طيبة . وقد آثرنا له ترجمة حرم آمون المقدس التى تعنى من تلوذ بالإله وتكتسب شيئاً من حرمته وتشرف على مقدساته وكاهناته ــ عوضاً عن ترجمته الشائعة فى بعض المؤلفات الأجنبية والعربية الحديثة وهى زوجة الإله آمون ــ وذلك أنه كان مما اختلفت به الديانة المصرية القديمة عن غيرها من الديانات الوضعية الأخرى المعاصرة لها أنها لم تأخذ بمثل المدلول الحرفى لهذا اللقب ، وهو المدلول الذى أدى فى أمم أخرى شرقية وغربية إلى ما سمى اصطلاحاً باسم البغاء الدينى ، وبمقتضاه كانت الكاهنة العظمى تهب نفسها وعفافها للإله أو الملك أو كبير الكهان الممثل للإله مرة فى العام ، على اعتبار أنها تضحى بذلك بأعز ما تملك لإرضاء ربها ، ومن أجل خير شعبها وضمان خصوبة أرضه وخصوبة الأرحام بين أهله وهو ما لم يحدث مثله فى مصر .

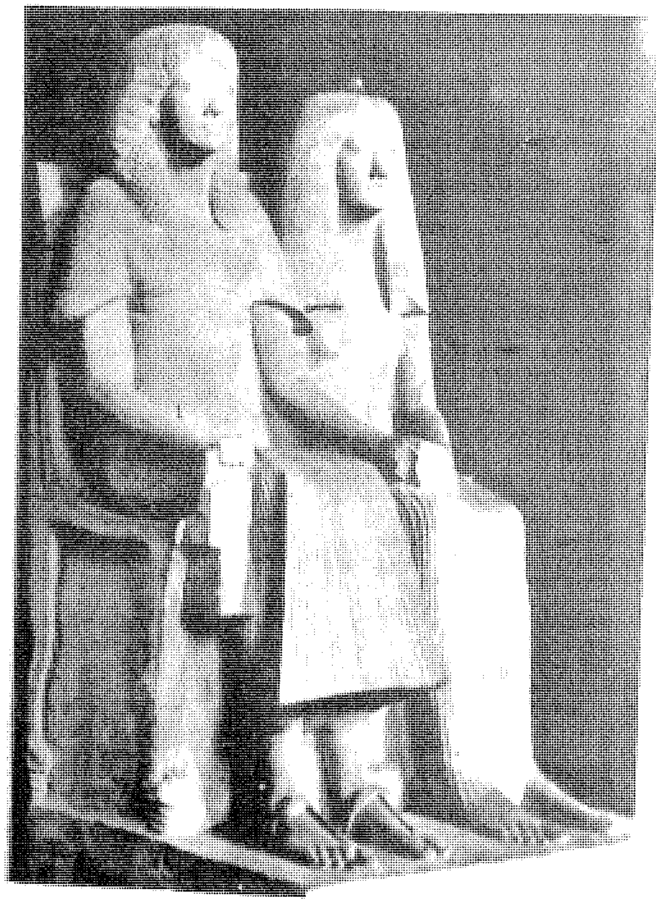
وعلى الجملة ، فقد أباح المجتمع المصرى القدىم نشاط المرأة فيما ناسبها من مجالات الحياة الخاصة والعامة وشئونها المدنية والدينية ، وفيما ناسب قيمه

هو وتقاليده ومعتقداته ، إلى جانب دورها الرئيسى فى رعاية بيتها وزوجها ، وتربية صغارها . كما أتاح لها من صور المساواة أو العدالة الاجتماعية ما تمايزت به عن أوضاع الإناث فى كثير من المجتمعات القديمة الأخرى المعاصرة لها فى الشرق والغرب على حد سواء . وقد بلغ الأمر بكاتب إغريقى أو متأغرق من بداية القرن الميلادى الثانى أن رد مكانة المرأة فى مصر القديمة إلى إرادة دينية قديمة ، ونسب إلى المعبودة إيسة (إيزيس) فى سياق مديحه لها أنها هى التى جعلت أهمية المرأة معادلة لأهمية الرجل .

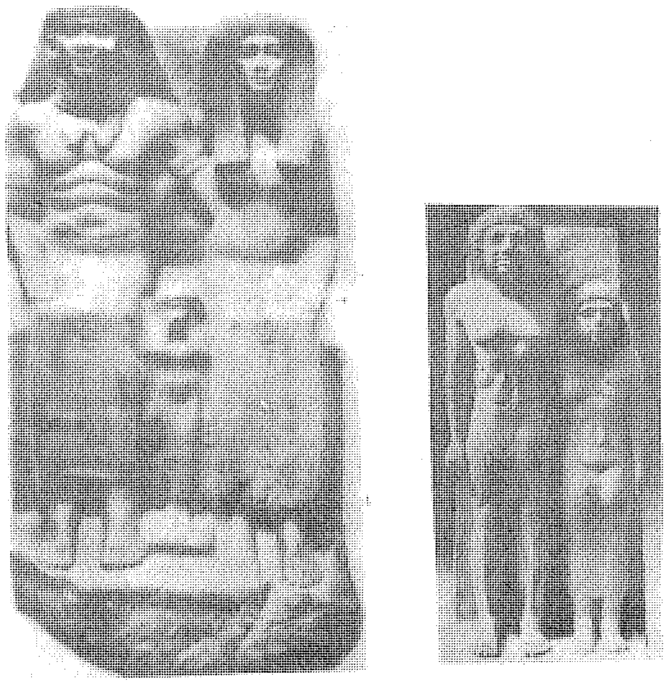
* * *

تم بحمد الله

اللوحات



١ ــ الجلسة التقليدية للزوجين ـ وملامسة اليد على استحياء



٢ ــ ٣ : من صور التعبير بأوضاع اليدين عن العواطف المتبادلة بين الزوجين



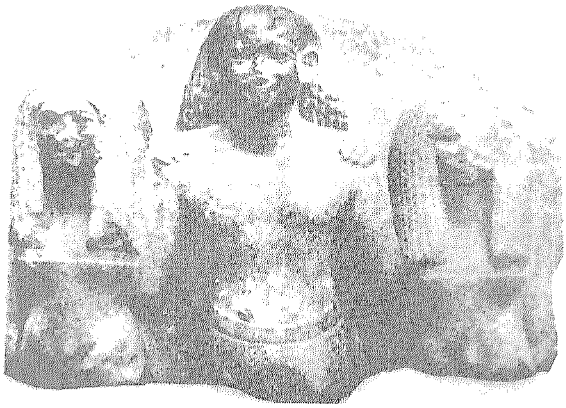
٤ ــ تـوت عنخ آمـون وزوجته فى خميلة القصـر ـ يبادلهـا التحية وتهـديـه الزهور .



٥ ــ وتطعمه بيدها .

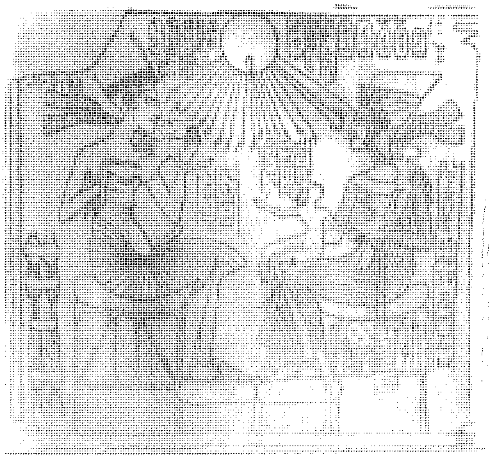


٦ ــ من صور الترابط الأسرى .





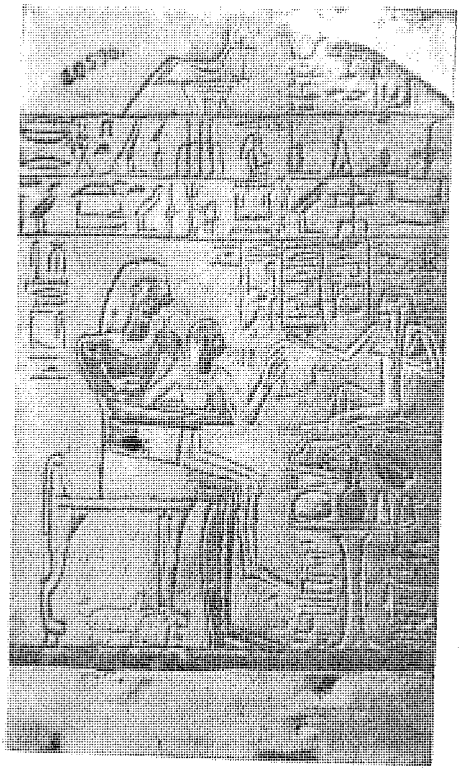
٧ ـــ ٨ : من محاولات التقريب بين الأثنين والعدل بينهما



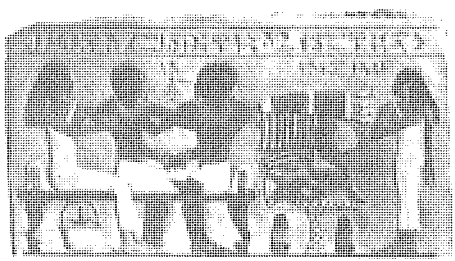
٩ ـ جلسة أسرية للملك آخناتون وزوجته نفرتيتى وبناتها المدللات.



١٠ ـ من تعاطف الأبوين والبنين والبنات

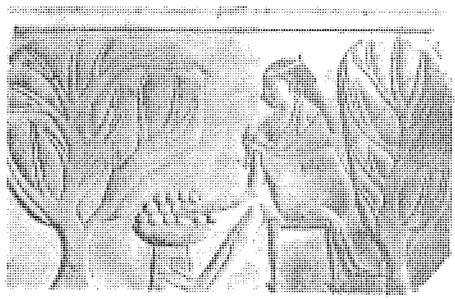


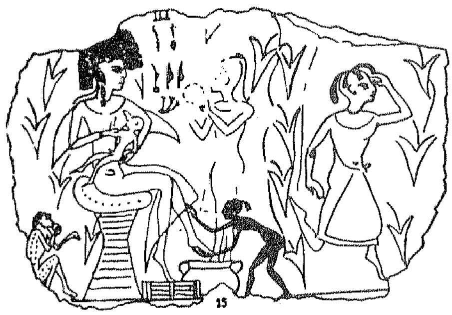
١١ ــ في حنان يضم الأب ولده على حجره ـ والابن وأمه يتنا جيان.





١٢ ــ ١٣ : من تعبيرات روابط الأسرة .





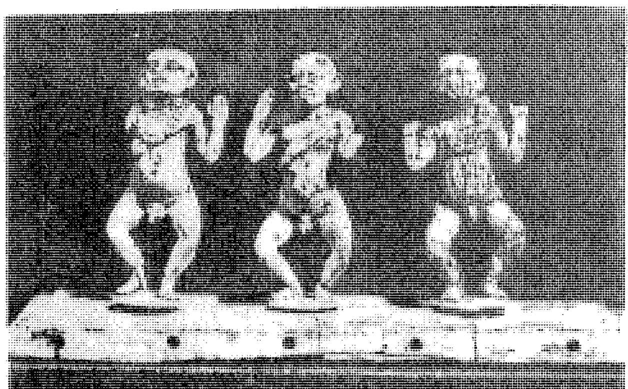
١٤ ــ ١٥ : من صور الإرضاع فى الأسر الثرية.



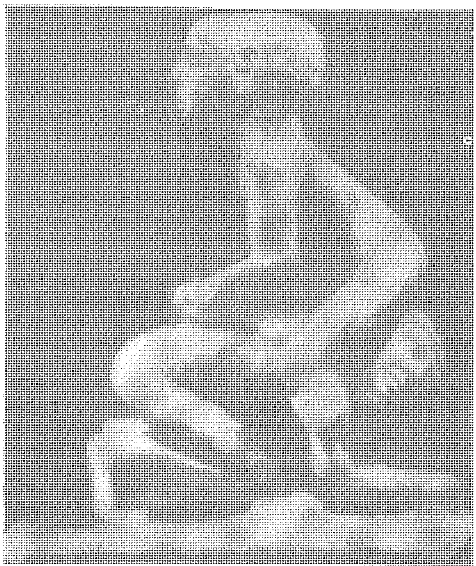
١٦ ــ جلسة المرضعة فى الأسر الوسطى والعادية.



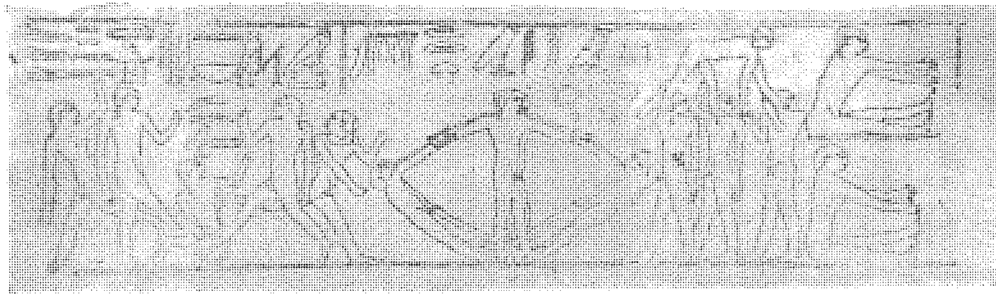
١٧ ــ دمية لعروس مشكلة



١٨ ــ ثلاثة من أربعة أقزام في فرقة راقصة



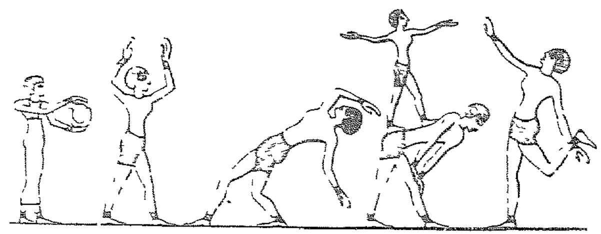
١٩ ــ من لهو الصغار



٢٠ ــ أربعة تشكيلات من ألعاب الصبية (فى القرن ٢٥ ق.م)



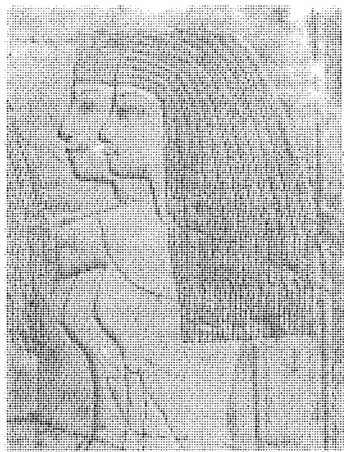
٢١ ـ شريط يسجل لعب البنات بالكرة وبعض أوضاع الأكروبات (س ق ٢٠ ق م).



٢٢ ـ عرض رياضي خاص تقدم جائزته فتاة (س ق ٢٠ ق م).



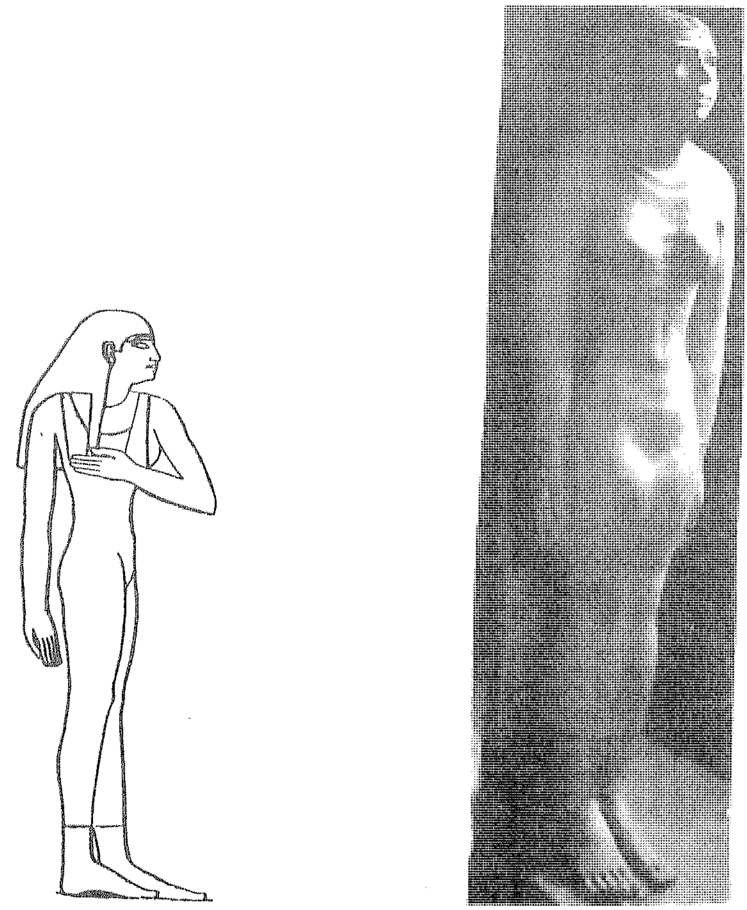
٢٣ : من رفاهة الشباب فى أسرة الوزير رعمس (من ق ١٤ ق . م)



٢٤ ـــ رشاقة الفتيات فى أسرة الوزير .



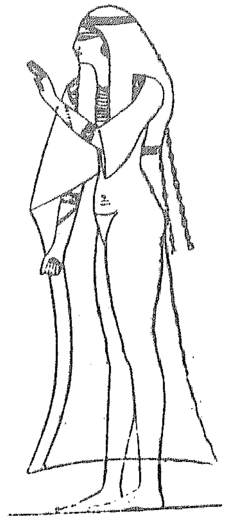
٢٥ ـــ : نفرة (الجميلة) من القرن ٢٧ ق . م .



٢٦ ــ ٢٧ : من أزياء وزينة النساء فى الدولة القديمة .



٢٨ ـ زيان من عصر الرعامسة للمعبودة إيسة والملكة نفرتارى.





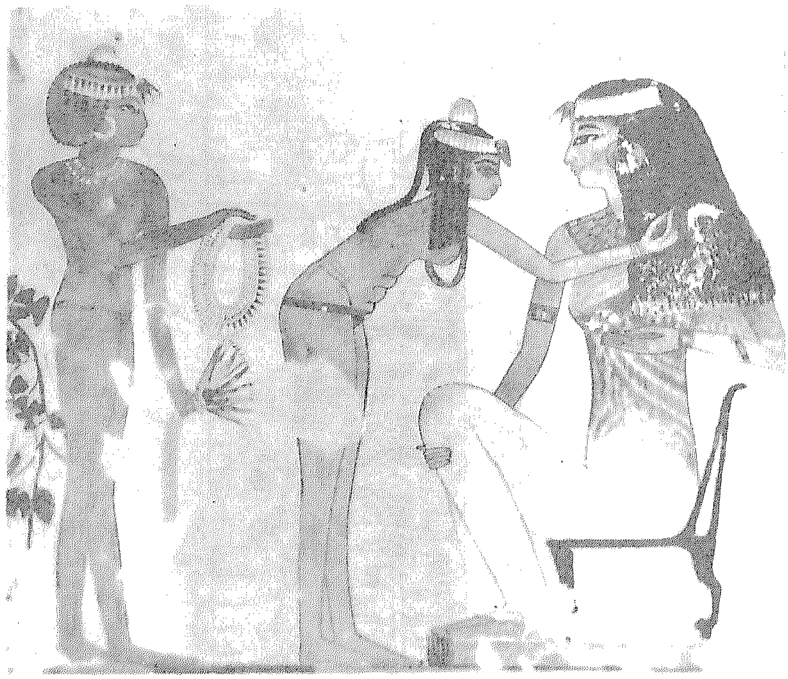
٢٩ ـ ٣٠ : من أزياء النساء فى الدولة الحديثة



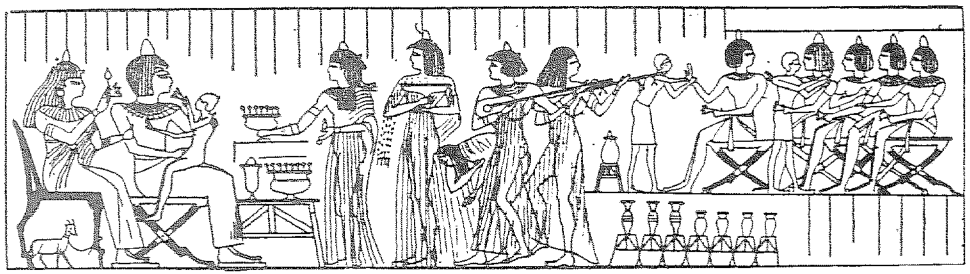
٣١ ــ عقدة أخيرة فى شعر الملكة كاوية (من نهاية القرن ٢١ ق م).



٣٢ ــ مرجلة شعر محترفة تعد ضفيرة للزينة .



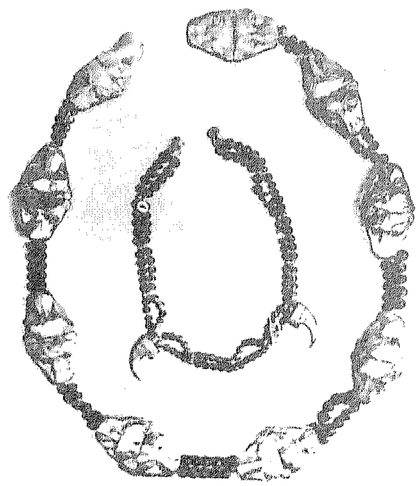
٣٣ ـ لمسات أخيرة فى التزين (من الدولة الحديثة).



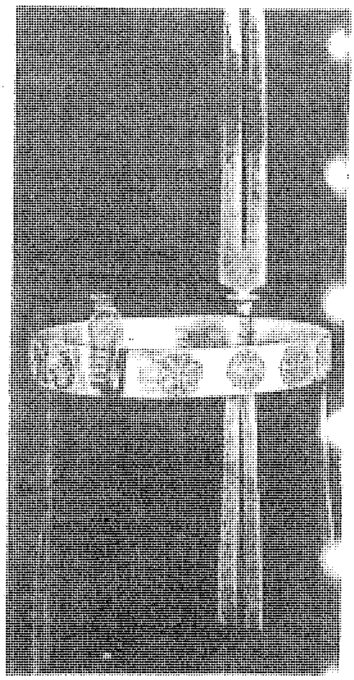
٣٤ ــ حفل مشترك يحييه النغم (من الدولة الحديثة).



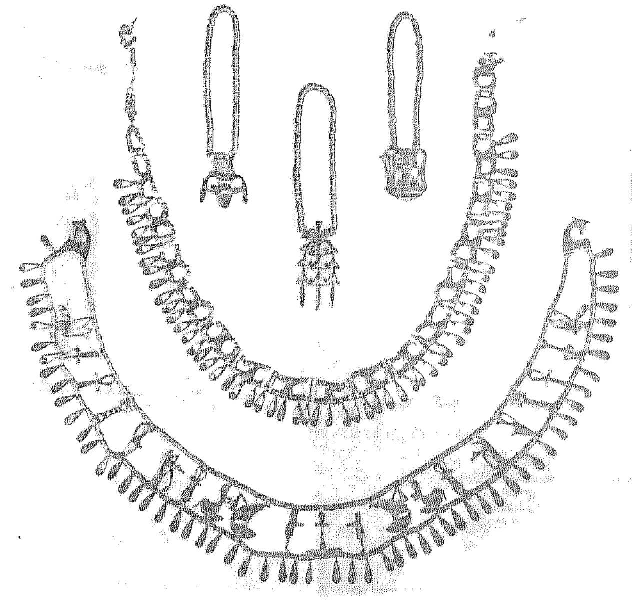
٣٥ ــ من محافل الطعام والشراب لمترفات النساء (فى الدولة الحديثة).



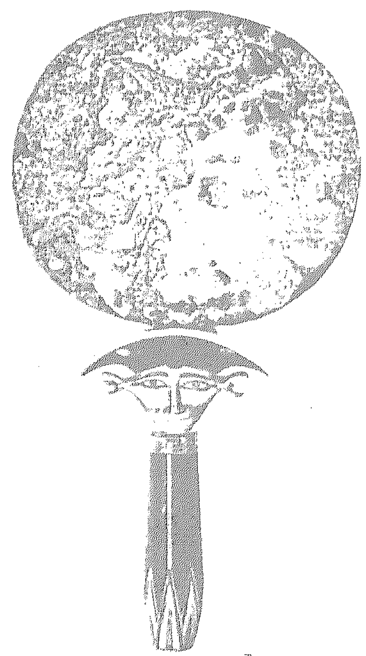
٣٦ ــ حزام وسط ، وسوار للقدم (خلخال) للأميرة مررة (من الذهب والأميتيست ـ من القرن ١٩ ق . م).



٣٧ ـ إكليل رأس للملكة سات حتحور أونة (من الذهب واللازورد والكارنيليان . من القرن ١٩ ق م).



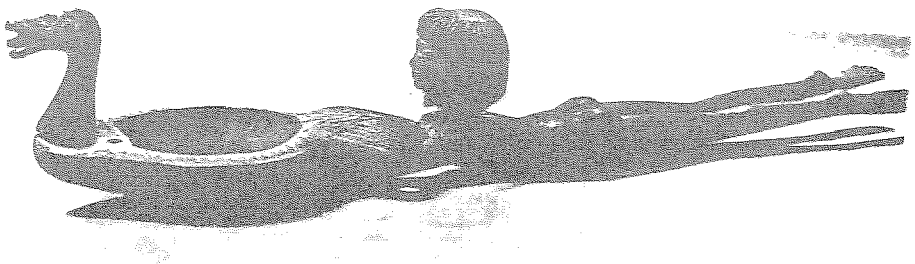
٣٨ ـ قلائد وأساور للأميرة خنومية (من الذهب والكارنيليان واللازورد والفيروز ـ من أواخر ق ٢٠ ق.م)



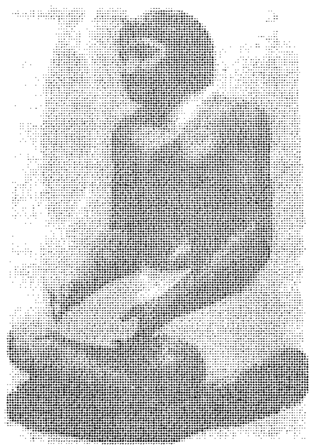
٣٩ ــ مرآة فضية بمقبض فاخر أنيق للملكة سات حتحور أونة من القرن ١٩ ق . م .



٤٠ ــ حق خشبي مزخرف ومكفت بالعاج للدهان والعطور ـ من القرن ١٤ ق م .



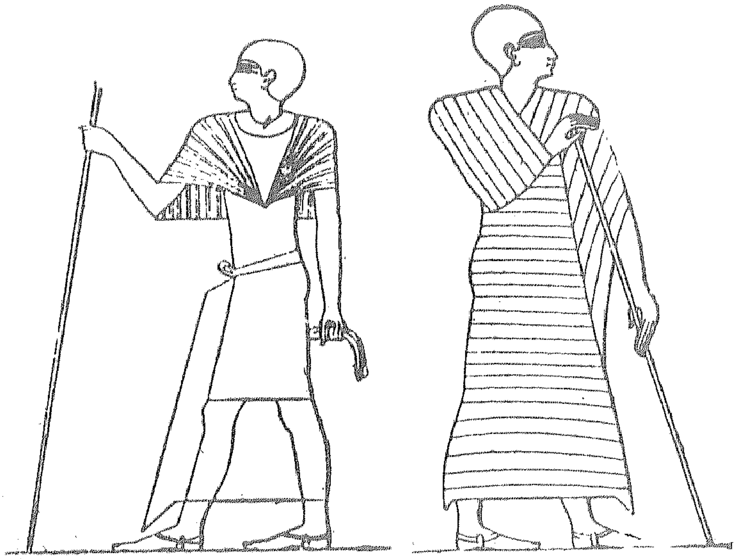
٤١ ــ ملعقة للدهان الفاخر من الخشب الملون والمطعم على هيئة بطة تدفعها جارية تسبح (من القرن ١٤ ق . م) .



٤٢ - أناقة شاب مثقف من الدولة القديمة



٤٣ : من مظاهر الرجولة فى الدولة القديمة (ق ٢٧ ـ ٢٦ ق .



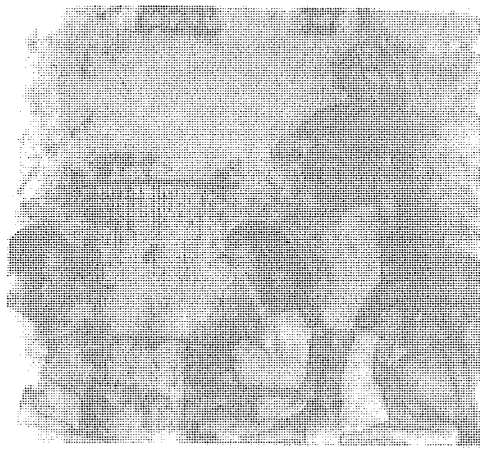
٤٤ ـــ أزياء من الدولة الحديثة



٤٥ - جارية تعصر الجعة



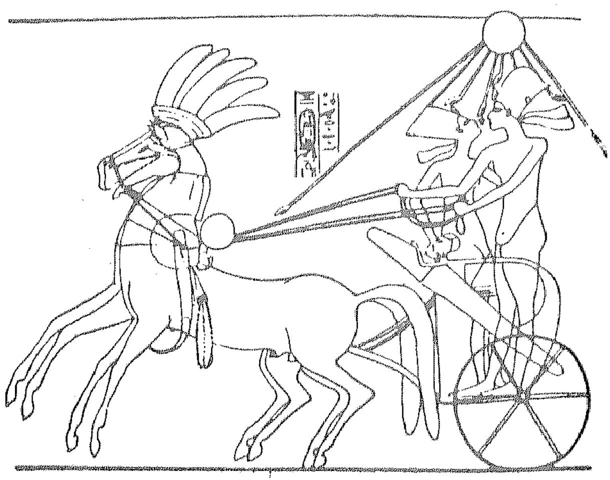
٤٦ : من نساء الطبقة العاملة فى الدولة القديمة



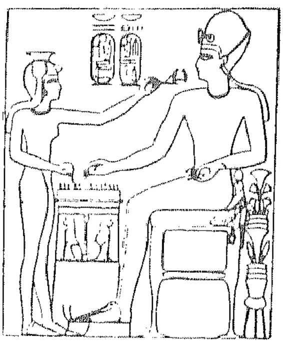
٤٧ ـــ من عاملات النسيج (فى الدولة الوسطى)



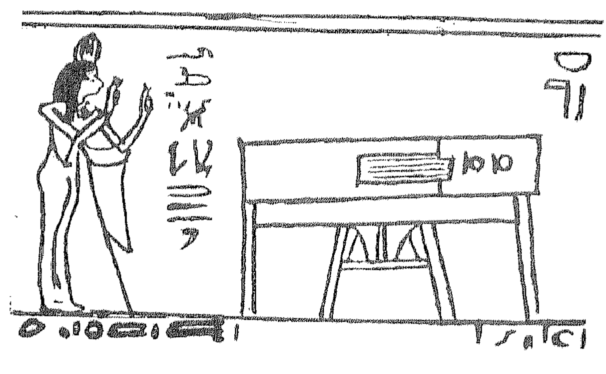
٤٨ ـ مشاركة نسائية في الأحزان من مختلف الأعمار .



٤٩ ــ الملكة نفرتيتى تهم بتقبيل زوجها الملك أخناتون خلال نزهة مرحة .



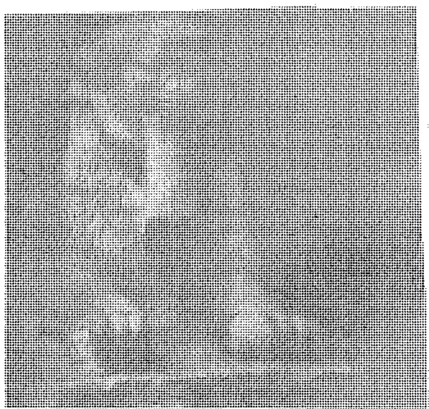
٥٠ ــ مباراة فى الشطرنج للملك
رمسيس الثالث وإحدى بناته



٥١ ــ مصرية مثقفة تمجد أدوات الكتابة .



٥٢ ــ الملكة حاتشبسوت فى أبهة الملك



٥٣ ـ وفى هيئة الأسد الوادع



٥٤ ــ الملكة تى فى شخصيتها المتحكمة . (ق ١٤ ق . م)



٥٥ ـ الملكة نفرتيتى (؟) فى تأمل وشرود .

بحوث مختارة

عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٦٦

: الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٧٤ - ص ١٧ - ٧٩

: الفن المصرى القديم - فى تاريخ الحضارة المصرية - القاهرة ١٩٦٢ - ص ٢٦٥ - ٣٧٠

: المرأة فى النصوص والآثار العربية القديمة - الكويت ١٩٨٥

Allam, S., "Die Stellung der Frau im alten Aegypten", **Bibliotheca Orientalis,** 26, 1969, 155-159. Also in **Das Altertum,** 16, 1970, 67-81.; "Ouelqes aspects du marriage dans l'Egypte ancienne", **JEA,** 67, 1981, 116-135.; "L'apport des documents juridiques de Deir el-Medineh", dans **Le droit egyptien ancien,** 1974, 139-162.

Amir, M., el., **A Family Archive from Thebes,** Cairo 1959.; "Monogamy, Polygamy, Endogamy and Consanguinity in Ancient Egypt", **BIFAO,** 62, 103f.

Cerny, J., "Consanguineous Marriages in Pharaonic Egypt", **JEA,** 1954, 23-29.; **A Community of Workmen at Thebes in the Ramesside Period,** Cairo 1973.

Erman, A, Ranke, H., Aegypten und aegyptisthes Leben in Altertum, 1923.

Gardiner-Sethe, **Egyptian Letters to the Dead,** London, 1928.

Harris, J. R. (j.a.), **The Legacy of Egypt,** Oxford, 1971.

Lesko, B. S., **The Remarkable Women of Ancient Egypt,** Berkely, 1977.

Lichtheim, M., **Ancient Egyptian Literature, I, II, 1973, 1976.**

Lüddeckens, E., Aegyptische Eheverträge, Wiesbaden 1960.

Mattah, G , **The Demotic Code of Hermopolis West,** Cairo, 1975.

Montet, P., **La Vie Quotidienne en Egypte au Temps des Ramesès,** Paris, 1946.

Pestman, P. W., **Marriage and Matrimonial Property in Ancient Egypt,** Leiden, 1961.

Petrie, W. F., Social Life in Ancient Egypt, London, 1923.

Pirenne, J., "Le Statut de la Femme dans L'Egypte ancienne", **Rec. Jean Bodin,** 1959, 63-77. Histoire des Institutions et du Droit Privé de l'Ancienne Egypte, Bruxelles, 1932f.

Schott,S., **Altaegyptische Liebeslieder,** Zürich, 1950.

Seidl, E., **Einführung in die Aegyptische Rechtsgeschichte...,** Glückstadt, 1951.

Simpson, W. K., "Polygamy in Egypt in the Middle Kingdom", **JEA,** 60, 1974, 100-105.

Simpson, W. K., Faulkner, R.O., and Wente, Jr., **The Literature of Ancient Egypt,** New Haven, 1973.

Tanner, R., 'Untersuchungen zum Ehe-und erbrechchen Stellung der Frau in pharaonischen Aegypten', **Klio,** 49, 1967, 5-37

Troy, L., Patterns of Queenship in Ancient Egyptian Myth and History, Uppsala, 1986.

Wenig, S., **Die Frau im alten Aegypten,** Leipzig, 1967.

Wilson, J. A., by Pritchard, J. B., **Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament,** Princeton, 1955.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٦٤٥/١٩٨٨
ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٨١١ - ٩

إن الكثير من سمات الحضارة المصرية على قدمها يحيا فى مجتمعنا المعاصر ، ولا سيما فى السلوكيات الاجتماعية والقيم الأسرية ، ولحياة الأسرة نصيب وافر من الصلة باضيها ، فيما تواضعت عليه من عادات وتقاليد نافعة أو ضارة مثل إيثار الترابط العائلى وحب الاستقرار واحترام كبار السن وتزكية الزواج المبكر وكثرة النسل . . . .

وتعالج هذه الدراسة مظاهر الحياة الأسرية من واقع النصوص والآثار لتكشف عن أساليب الزواج والطلاق ومدلولات تسميات الأطفال ومثاليات الأسرة ووضع المرأة فى المجتمع

٤٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب